مجانا مع القاهرة

هدية العدد ٤٣٦ ((٢٦ أغسطس ٢٠٠٨))

الكتاب للجميع ٧٧

ماجلان قاهر البحار

ستيفان زفايج

ترجمة: حبيب جماتى

الجزء الأول

91
Z
2

مجاناً مع جريدة القاهرة

■
رئيس مجلس الإدارة
فاروق عبد السلام
رئيس التحرير
صلاح عيسى

تصميم الغلاف: **محمد الغول**

■
جريدة اسبوعية ثقافية عامة
تصدر كل ثلاثاء عن وزارة الثقافة
الادارة والتحرير:
٩ شارع حسن صبري-الزمالك-
القاهرة-جمهورية مصر العربية
هاتف: ٢٧٣٧٣٠٤١
فاكس: ٢٧٣٧٣٠١٨
Email: alkahera@idsc.net.eg

سلسلة شعبية تعيد إصدارها
دار المدى للثقافة والنشر

رئيس مجلس الادارة والتحرير
فخري كريم

الاشراف الفني
محمد سعيد الصكار

سورية – دمشق ص. ب: ٨٢٧٢ أو ٧٣٦٦
تلفون : ٢٣٢٢٢٧٥ – ٢٣٢٢٢٧٦ فاكس : ٢٣٢٢٢٨٩
www.almadahouse.com E-mail:al-madahouse@net.sy
لبنان – بيروت– الحمراء– شارع ليون– بناية منصور– الطابق الأول
تلفاكس: ٧٥٢٦١٦–٧٥٢٦١٧
E-mail:al-madahouse@idm.net.lb
العراق – بغداد– أبو نواس– محلة ١٠٢– زقاق ١٢–بناء ١٤١
مؤسسة المدى للإعلام والثقافة والفنون
almadapaper.com
almada112@yahoo.com almada119@hotmail.com

الهيئة الاستشارية

المنجي بو سنينة
تركي الحمد
جابر عصفور
خالد محمد احمد
خلدون النقيب
سيد ياسين
طلال سلمان
علي الشوك
فؤاد بلاط
محمد برادة

الكتاب للجميع

٧٧

ستيفان زفايج

ماجلان

قاهر البحار

الجزء الأول

ترجمة: حبيب جاماتى

طبعة خاصة
توزع مجاناً مع جريدة

دار المدى للثقافة والنشر
٢٠٠٨

الطبعة الأولى
١٩٤٣

مؤلف الكتاب

كان «ستيفان زفايج» مؤرخاً دقيقاً واسع الإطلاع، روائياً واسع الخيال قوي الأسلوب، وعالماً نفسياً فهم الطبيعة البشرية ووقف على الكثير من أسرارها واتجاهاتها وكان إلى ذلك كله فناناً مرهف الحس، يعشق الجمال ويؤمن بعظمة الإنسان وقيمة النفس البشرية. ومن هنا، كان يبغض «الدكتاتورية» في صورها المختلفة الظاهرة والخفية، ويتألم أشد الألم لأساليب العنف والظلم والاضطهاد.

لقد كان «زفايج» يأمل أن يرى عناصر الخير تنمو وتزدهر كلما تقدم ركب المدنية وموكب الحضارة. ولكنه رآها تتضاءل وتنكمش ـ أو هكذا قيل له ـ ورأى الجمال يشوه وكرامة الإنسان تهدر، فضاقت نفسه بالحياة، وأظهر تبرمه بها في كثير من المناسبات.

ولد «زفايج» في النمسا، وتعلم في فينا. وفي عام ١٩٣٨، فر إلى إنجلترا، بعد أن سئم العيش في الجو الخانق الذي أشاعه هتلر في بلاده. ورحبت به إنجلترا... والتف حوله عدد كبير من الأنصار والأصدقاء والمعجبين، ولم يلبث أن تجنس بالجنسية البريطانية.

ولكنه سافر فجأة إلى البرازيل ـ وكان حينذاك يكتب كتاباً عن بلزاك ـ دون أن يدري أحد سر هذا السفر المفاجئ. ولعله ضاق بالعمل في إنجلترا أيضاً، بعد أن أقضت الطائرات الألمانية مضاجع الأهلين فيها. ولم ينقض عليه عامان، بالبرازيل، حتى وجد ذات يوم منتحراً في مسكنه ببلدة «ريو دي جانيرو».

وبرغم ما صادفه «زفايج» في حياته من متاعب، فإن إنتاجه الأدبي كان وفيراً. وقد عني بصفة خاصة بكتابة السير وتواريخ الحياة. وأشهر هذه الكتب،

الكتاب الذي نقدمه اليوم للقراء، و«ماري انتوانيت» و«ماري استيوارت» ملكة اسكتلندا، و«فوشيه» و«بلزاك» و«غاريبالدي».

لقد كان يختار الشخصيات التي يكتب عنها في مختلف البلدان وفي فترات مختلفة من التاريخ. وهو حين يكتب عنها، يصورها تصويراً صادقاً شائقاً، ويضع الحقائق التاريخية المتصلة بها في قالب روائي ممتع.

ومن أروع القصص الطويلة التي كتبها، قصة «حذار من الشفقة». وهي قصة ضابط نمساوي تزوج من فتاة مشوهة، ليس بدافع الحب وإنما بدافع الشفقة. وقد حلل الكاتب نفسية الزوجة تحليلاً قوياً بديعاً، يبرز براعته في التحليل والتصوير. وله أيضاً كتاب بعنوان «كاليرسكوب» يحوي مجموعة من القصص القصيرة الشائعة.

في سبيل التوابل

كانت التوابل هي الهدف الأول للرحلات الشاقة الطويلة التي يقوم بها التجار الغربيون إلى الشرق. فمنذ ذاق الرومان في أثناء غزواتهم طعم التوابل الشرقية المختلفة، بين حارة ومخدرة، ولاذعة ومسكرة، أخذ استعمال هذه التوابل في إعداد الطعام ينتشر بين أهل الغرب حتى صار ذلك عادة متمكنة يصعب إقلاعهم عنها.

وكان الأوروبيون في القرون الوسطى يجهلون الليمون الحامض، وكان كبارهم وأغنياؤهم يرون أن لذة الطعام في الإكثار منه، ثم تبين لهم فجأة أن نزراً يسيراً من البهار أو القرفة أو الزنجبيل أو غيرها من التوابل يكفي لإكساب الطعام نكهة لذيذة لا عهد لهم بها من قبل. فأصبحوا لا يقبلون على غذاء ما لم يمزجوه بالتوابل الشرقية، بل صاروا يخلطون شرابهم بها أيضاً!

وكان ثمة هدف آخر لتلك الرحلات، هو الحصول بجانب تلك التوابل اللازمة للطعام، على أنواع العطور العربية الجديدة من المسك والعنبر وماء الورد وغيرها، مما اشتدت إليه حاجة النساء في ذلك العصر، بل شاركتهن الكنائس في الحاجات إلى تلك المنتجات الشرقية، بحكم استهلاك كميات كبيرة من أنواع البخور التي تجلب من بلاد العرب، بالطرق البحرية أو البرية الطويلة.

وكذلك كان الصيادلة الأوروبيون في حاجة إلى «العقاقير الهندية» كالأفيون والكافور والصمغ، وقد علمتهم التجارب من زمن بعيد أن عملاءهم قد يشكون في فائدة أي بلسم أو دواء لا تكتب على زجاجته بالحروف الزرقاء عبارة «وارد من الهند» أو «وارد من بلاد العرب» ذلك لأن كل ما هو شرقي في ذلك الحين كان خليقا أن يبهر عقول الأوروبيين ويعمل في نفوسهم عمل السحر، إما لبعد الشقة

بينهم وبينه، وإما لندرة الشيء الشرقي وغرابته عندهم، وقد يكون ذلك أيضاً لارتفاع ثمنه.

وهذا الإقبال على واردات الهند جعل أسعارها باهظة، حتى إن البهار، الذي نجده الآن في كل مكان، كان يباع بالحبة الواحدة، ويساوي وزنه فضة! وكانت قيمته المادية عند بعض الحكومات كقيمة المعادن الثمينة، فيدفعه الناس ثمناً لأراض يشترونها، أو بائنة للعروس! بل كانت الحكومات تتخذه أساساً لميزانية وارداتها، وكان الناس يصفون الغني في تلك العصور بأنه «كيس بهار!». وكانوا يزنون الزنجبيل وقشر البرتقال والكافور بميزان الصيادلة أو الصاغة بعد أن يحكموا غلق الأبواب والنوافذ، لكيلا تعبث نسمة من الريح عابرة بالمسحوق الثمين فتضيع منه ذرات!

ولا شك في أن صعوبات النقل وأخطاره في ذلك الحين، كان لها أكبر الأثر في ارتفاع أسعار السلع الشرقية. فالمسافة الشاسعة بين الغرب والشرق كان الإقدام على قطعها ضرباً من المغامرة، لكثرة العقبات والأهوال التي كانت تعرض للسفن والقوافل في الطريق، في وقت تفشت فيه الحروب وأعمال القرصنة!

وما أروع المراحل التي كانت تجتازها الحبة التافهة، أو الزهرة الصغيرة، منذ قطفها من شجرتها الخضراء في جزر الملايو، حتى وصولها إلى ميناء السلام، وإلى حانوت البقال الأوروبي. ومن هنا كانت القرفة والقرنفل وجوز الطيب والبهار وغيرها مما تحفل به الأرض في تيدور وأمبوانا وبندا وملابار وجزر الملايو، لا يساوي القنطار منها هناك ما تساوي حفنة منها في الغرب. وذلك لأنها قبل أن تصل - عبر البحار أو الصحارى - إلى يد المشتري تتداولها أيدي كثير من طلاب الربح والاستغلال. فالعبد الذي يقطف الأزهار في الملايو وينقلها على ظهره إلى السوق في قفة من قشور الشجر، لم يكن يتناول على هذا أجراً، وكذلك كان سيده يكتفي في بيعها بربح لا يكاد يستحق الذكر. ولكن التاجر الذي يشتريها بهذا الثمن الزهيد، يفرض لنفسه عند بيعها ربحاً يوازي ما يكلفه من الجهد نقلها في سفينة صغيرة خلال ثمانية أيام أو عشرة أو أكثر، من جزر ملوك إلى ملقة. ثم يأتي بعد ذلك دور التاجر

الذي ينقلها إلى الهند في سفينة أكبر، وهو لا يستطيع الإبحار بها من الميناء إلا بعد أن يؤدي ضريبة فادحة يفرضها عليه سلطان ملابار، ثم يظل ينتقل بها في سفينته من مرفأ إلى آخر، في رحلة تدوم شهوراً، مؤدياً الضريبة المفروضة في كل منها، فإذا سلم بعد ذلك من وهج الشمس المحرقة، أو الزوابع والأعاصير، فقليلاً ما يسلم من القراصنة. حتى إن سفينة على الأقل من كل خمس سفن كانت تذهب فريسة الزوابع أو القراصنة في الطريق!

وحينما تصل السلعة إلى ميناء هرمز على الخليج العربي، أو إلى ميناء عدن على البحر الأحمر، فإن أبواب بلاد فارس أو بلاد العرب السعيدة تفتح أمامها. غير أن نقلها عبر هذه ليس أقل خطراً من نقلها في المرحلة السابقة، فلابد من شهور أخرى تستغرقها الرحلة الجديدة على ظهور الجمال المحملة بأكياس البهار وجوز الطيب وما إليها من السلع عبر بحار مترامية من الرمال والقفار والمفاوز، إلى أن يقدر لها الوصول إلى بيروت أو طرابزون، مارة بالبصرة وبغداد ودمشق - تلك الأسماء التي تعيد إلى الأذهان ذكرى «ألف ليلة وليلة» - أو الوصول إلى القاهرة مارة بميناء جدة. وهي خلال هذه المرحلة تسلك طرقاً قديمة جداً، يعرفها التجار منذ عهد الفراعنة. ولكن لصوص الصحراء أيضاً يعرفونها، ويتربصون فيها بالقوافل يهاجمونها ويسلبونها ثمرة تعبها. ومن أفلت من أيدي البدو، وقع في أيدي الحكام الذين يفرضون رسوماً باهظة على كل جمل وكل كيس. وهكذا يصل ما يبقى من تلك السلع إلى ميناء الإسكندرية، وقد صار ثمنها أضعافاً مضاعفة!

على أن هناك أخطاراً وعقبات ونفقات جمة لابد أن تعرض لها هذه السلع بعد ذلك في طريقها من الإسكندرية إلى أوروبا، أهمها أن جمهورية البندقية بعد أن قضت بفضل أسطولها الكبير على مزاحمتها «بيزنطة»، أصبحت تحتكر تجارة التوابل التي تنقل إلى مرفأ البندقية، حيث تعرض في سوق «الريالتو» لتباع في مزاد علني للوسطاء الألمان والفلامنديين والإنجليز، ثم تودع في مركبات متينة تزحف بها، خلال الجبال والثلوج، لتصل أخيراً إلى البقالين والمستهلكين.

والواقع برغم هذا كله أن تجارة واردات الشرق كانت في العصور الوسطى أوفر

أنواع التجارة ربحاً. وقد شيد كثير من التجار الأوروبيين قصوراً شامخة عاشوا فيها عيشة الملوك من أرباح تلك الواردات!

هذا، وقد نظر أهل «جنوى»، والفرنسيون، والإسبانيون، بعيون الحسد إلى «البندقية» التي احتكرت هذه التجارة، كما حقدوا على التجار العرب والترك، لأن كل تجارة بين الهند وبلاد الروم لم يكن بد من أن تمر في أيديهم، بعد أن حرم اجتياز البحر الأحمر على كل سفينة أو تجارة مسيحية، فأفقد هذا أولئك التجار الأوروبيين جانباً كبيراً من أرباحهم من تلك السلع، ونقل إلى الشرق كثيراً من المعادن الثمينة التي تدفع في الغرب ثمناً لها.

* * *

ولعل هذا ما حفز الغرب إلى العمل للتخلص من تلك الرقابة الشرقية. فكانت الحملات الصليبية التي تحالفت فيها دول الغرب المسيحي لانتزاع الأماكن المقدسة من أيدي المسلمين، وللوصول في الوقت نفسه إلى الهدف الأهم لهذه الحملات وهو تحطيم السد الحائل دون البحر الأحمر، وفتح أسواق الشرق أمام التجار الأوروبيين!

ولما خمدت الحروب الصليبية، وفشل الغرب في الاستيلاء على مصر، ولبث العالم الإسلامي قابضاً على طريق الهند، بات لزاماً على الغرب إيجاد طريق آخر لتجارته يكون حراً مستقلاً.

وعلى هذا يمكن القول بأن هذه الرغبة نفسها كانت أهم العوامل التي دفعت «كولومبوس» إلى الغرب، و«برتولوميو دياز» و«فاسكو دي جاما» إلى الجنوب، و«كابو» إلى الشمال نحو أرض لابرادور... في سبيل استكشاف مسالك بحرية.

ولا خلاف على أهمية الدوافع الدينية والفكرية، ولكن الدوافع المادية هي الحاسمة في المشروعات العظمى. ولو لم يكن الذين ساعدوا كولومبوس وماجلان وغيرهما موقنين أنهم سيجنون ثمرة مساعدتهم أضعافاً مضاعفة، لما أقدموا عليها. فوراء تلك المغامرات، كان التجار يقفون ويشجعون.

وكانت التوابل هي الهدف الأول لكل هذه المشروعات والمساعدات!

عبقرية مبكرة

كانت البرتغال في ذلك العصر حديثة عهد بالاستقلال وقد ظفرت به بعد طول جهاد ونضال، ثم انطلقت لتؤدي نصيبها من الرسالة الأوروبية، باحثة عن منفذ لنشاطها.

ولم يكن في وسع البرتغال وهي بلاد صغيرة فقيرة، أن توسع حدودها البرية إذ كانت هذه الحدود مشتركة مع جارتها الشقيقة إسبانيا. فلم يبق إلا أن تتوسع من ناحية البحر، بالتجارة والاستعمار. ولكن مركزها الجغرافي في ذلك الحين كان أسوأ مركز بين الأمم البحرية الأوروبية. وذلك لوقوعها على ساحل المحيط الإطلنطي، الذي ساد الاعتقاد حينذاك ـ طبقاً لنظرية بطليموس ـ بأنه خضم من الماء لا نهاية له ولا سبيل لعبوره! كما أن الطريق إلى الجنوب كانت تبدو مغلقة ـ طبقاً للنظرية ـ نفسها، لتعذر طواف السفن حول الأصقاع الممتدة على طول السواحل الإفريقية الخالية من السكان، والتي تمتد حتى القطب الجنوبي دون أن يكون فيها أي منفذ لمرور السفن!

على أن أميراً عبقرياً من أمراء البرتغال، سمت به همته إلى التفكير في إخضاع المستحيل وجعله ممكناً. فقد انتهى التفكير بذلك الأمير إلى الشك في صحة نظرية بطليموس، وزاد في شكه هذا أن أمواج المحيط الأطلنطي كانت تحمل أحياناً من الغرب إلى سواحل البرتغال قطعاً غريبة من الخشب، فرأى أنها لابد أن تكون آتية من بلاد مجهولة لم تستكشف بعد. ولاح له أن أفريقيا قد تكون آهلة بالسكان، وقد يمكن من طريقها بلوغ المحيط الهندي، فبلوغ الهند والحصول على سلعها التي تدر الأرباح الطائلة!

وعلى أساس هذه الفكرة، وقف الأمير هنريك، ابن ملك البرتغال وابن أخت ملك

الإنجليـز، كل جـهـوده لاسـتكشـاف ذلك الطريق الجـديد إلى الهند عـبـر المحـيط الإطلنطي.

وقد أطلق التـاريخ على هذا الأمير لقب «الملاح» مع أنه لم يركب البحر إلا مرة في حملة عـسكرية على مدينة سبتة، سنة ١٤١٢. ولكنه خصص ثروته كلها للملاحة والملاحين، وزهد في أرفع المراتب التي تؤهله لهـا مـكانتـه، مـؤثراً العـزلة في «رأس سكريز» حيث بقي خمسين سنة يعد العدة لتلك الرحلة الأولى من نوعـها في العـالم كله!

ولا يدري أحـد على التـحقـيق كيف نبـتت هذه الفكرة العـجـيبـة في ذهن ذلك الأمير المغامر الجريء، ولا كيف اعتقد عكس ما كان يدعيه علماء الجغرافيا في ذلك العهد من أن أفريقيا ملتصقة بالقطب الجنوبي ولا يمكن الطواف حولها؟

وقـد كـانت هناك رواية تاريخـيـة رائجـة في عـصـره، قرأها النـاس في مؤلفـات هيرودوتس وسترابون - مؤداها أن عمارة من السفن الفينيقيـة، هبطت جنوباً في البحر الأحمر في عـهـد الفراعـنة، ثم عـادت بعد سنتين بطريق أعـمـدة هرقل (مضـيق جبل طارق). وقد يكون الأمـير البرتغـالي قد سمع من تاجر مغربي أن وراء البادية الليبية والصحارى الرملية تمتد «بلاد الغنى»، فإن بلاد «غينيا» قد ذكرت بهذا الاسم وبدقة كبيرة في خريطة وضعها جغرافي عربي سنة ١١٥٠ إجابة لرغبة الملك روجيـه الثـاني النورماندي. وعلى هذا، قـد يكون الأمير هنريك أوسع إطلاعاً على جغرافية أفريقيا، بفضل المعلومات التي جمعـها، من أولئك الجغـرافيين الرسـميين الذين كـانوا يؤمنون بصحة نظريات بطليموس، ويصفون مؤلفات ماركوبولو وابن بطوطة، بأنهـا مجمـوعة أكاذيب!

لم يبق من القصر الذي شيده هنريك في رأس سكريز غـير جدران متداعية، وانه ليـصعب معـرفـة الطريقة التي اتبعـها الأمـير في إعداد خطط فتـوحاته وأسفاره من المعلومـات القليلة التي وصلت إلينا، يغلب على الظن أنه جـمع طائفـة من الكتب والخرائط من جميع أنحاء العالم، ودعا إليـه جماعة من العلمـاء والجغـرافيين العـرب. وكـان يسـأل كل ربان وكل بحـار عـائد من سفره، ثم أفرغت تلك المعلومات كلها في

ملفات خاصة، وبعد أن نظم الأمير رحلات متوالية، انصرف إلى تحسين صناعة السفن. وفي بضع سنوات، شغلت مكان القوارب الصغيرة ـ التي كانت شائعة حينذاك ـ مراكب متينة حمولتها ثمانون طناً أو مائة طن، أي في وسعها اقتحام البحر في اضطرابه. ولما كان هذا النوع الجديد من السفن يتطلب بحارة من نوع جديد كذلك، فقد أعد هنريك أخصائيين في فن الملاحة. وهكذا دعم الأمير الناحية النظرية بالناحية العملية، فظهر جيل جديد من الملاحين والمكتشفين، دلت البوادر على أن مستقبلهم سيكون مجيداً. وكما أن فيليب المقدوني قد ترك لابنه الإسكندر جيشه الذي لا يقهر ليفتح به العالم، فإن الأمير هنريك قد ترك للبرتغال أسطولاً حديثاً، هو خير الأساطيل في ذلك العهد يعمل عليه ملاحون مهرة يتحفزون لقهر المحيط.

ولكن الأقدار تشاء دائماً أن يموت السابقون وهم على أبواب أرض الميعاد قبل أن يروها. فإن هنريك لم يشاهد اكتشافاً واحداً من تلك الاكتشافات التي خلدت اسم وطنه. ففي السنة التي مات فيها ـ أي في سنة ١٤٦٠ ـ لم تكن قد ظهرت بعد نتيجة واحدة عملية في ميدان الجغرافيا. ولم يكن اكتشاف جزر آسور وماديرا غير تجديد اكتشاف سابق، فقد أشار لورنتينو في سنة ١٣١٥ إلى وجود هذه الجزر. وإذا كانت القوارب المعروفة باسم «ناووس» قد تقدمت على سواحل إفريقيا الغربية، فإنها لم تصل ـ في نصف قرن ـ إلى خط الاستواء.

وقد نجحت في ذلك العهد تجارة غير مشرفة هي تجارة الرقيق، فكان الزنوج يخطفون جماعات وأفراداً على شاطئ السنغال، ويباعون عبيداً أرقاء في أسواق لشبونة. وعثر الملاحون أيضاً على قليل من تراب الذهب... هذا كل ما رآه هنريك من المشروعات التي وضع خططها.

غير أن النتيجة الحاسمة قد تحققت فعلاً. فإن تقدم الملاحة البرتغالية لا يقدر بنسبة المسافات التي اجتازتها السفن، بل بالأثر الأدبي الذي أحدثه ذلك التقدم، واشتداد الميل إلى الأعمال العظيمة، والقضاء على خرافة خطرة. فقد تناقل رجال البحر، خلال الأجيال السابقة، أن الملاحة مستحيلة بعد رأس «نون» الذي يبدأ عنده «بحر الظلمات الأخضر» والويل للسفينة التي تجازف بمواصلة السير إلى تلك المجاهل

الميتة. فهناك تشتد حرارة الشمس حتى تغلي المياه وتندلع النار بجوانب السفينة وأشرعتها. والمسيحي الذي يجرؤ على دخول «بلاد الشيطان» القفراء، يمسخ في الحال فيصبح زنجياً. وقد تدخل البابا في الأمر فدعا الناس إلى العمل مع هنريك.

ويا له من ظفر، يوم أقدم جيل أيانس، سنة ١٤٣٤، على اجتياز رأس نون، وكتب يقول: «إن العالم الكبير بطليموس مخرف عجوز، وان الملاحة في مياه غينيا سهلة، والبلاد جميلة فائقة الثراء». وهكذا تم تجاوز «النقطة الميتة» ولم يعد البرتغال في حاجة إلى بذل الجهود للحصول على بحارة له. فقد توافد عليه هواة المخاطرات والمغامرون من جميع البلدان ووضعوا أنفسهم في خدمته. وكانت كل رحلة جديدة ناجحة تشجع الملاحين. فوجد جيل جديد من الرجال الشبان الذين امتلأوا إقداماً وحباً في المغامرة.

ولهذا، فإن موت هنريك لم يكن غير وقفة قصيرة قبيل الوثبة الكبرى. فما إن تبوأ الملك جوان الثاني العرش، حتى بدأ نهضة جديدة فاقت كل الآمال. فالعمل الذي كان يسير بطيئاً من قبل أصبح الآن يخطو خطوات الجبابرة.

ففي سنة ١٤٧١، وصلت سفن البرتغال إلى خط الاستواء. وفي سنة ١٤٨٤، نزل ديجو كام عند مصب نهر الكونغو. وفي سنة ١٤٨٦ تحقق حلم هنريك، فوصل البرتغالي برتولوميو دياز إلى طريق أفريقيا الجنوبي: رأس الرجاء الصالح، الذي أطلق عليه قبلاً «رأس الزوابع».

وعلى الرغم من أن الزوابع مزقت أشرعته، فإن الفاتح المقدام قد واصل طريقه، حتى بلغ الساحل الشرقي، حيث يمكن أن يرشده الربابنة المسلمون إلى طريق الهند. ولكن رجاله ثاروا عليه، وصاحوا قائلين: «حسبنا ما قطعناه هذه المرة»، فاضطر دياز أن يعود أدراجه دامي القلب تاركاً لأوروبي آخر شرف شق الطريق إلى الهند. وهذا ما فعله فيما بعد البرتغالي فاسكو دي جاما.

وللمرة الأولى، وضحت معالم إفريقيا الجغرافية. وثبت أن بطليموس غير صادق، فإن هناك طريقاً بحرياً يؤدي إلى الهند. وهكذا حقق تلاميذ هنريك الحلم الذي داعبه في حياته، بعد موته بست وعشرين سنة!

وتطلع العالم بعين الدهشة والحسد إلى ذلك الشعب الصغير، القابع في طرف أوروبا الذي أصبح بين يوم وليلة أول دولة بحرية في العالم، وكسب بنشاطه أقاليم جديدة، بل قارات كاملة. ولم تمر عشرة أعوام، حتى تكون أصغر دولة في أوروبا قد بسطت سلطانها على مساحات أوسع مما كانت عليه الإمبراطورية الرومانية في أوج سلطانها.

وبات الجميع يرقبون آخر الأنباء الصادرة عن لشبونة. وأدركت أوروبا أن الاكتشافات الجديدة ستغير معالم الكون أكثر مما فعلت الحروب والمدافع، وأن عهد العصور الوسطى قد ولى، وبدأ عهد جديد ينشأ في نطاق أوسع!

ولكن حادثاً مقلقاً طرأ فجأة فوقف ذلك الزحف الظافر. فإن طريق «الدنيا الجديدة» قد أصبحت مفتوحة من الشرق، وخيل للملك جوان أن عرش الهند وكنوزه قد غدت ملكاً له. ومنذ اليوم الذي تجاوز فيه البرتغاليون رأس الرجاء الصالح، لم يعد في وسع أحد أن يسبقهم أو يلحق بهم في الطريق الذي سلكوه، فالأمير هنريك قد احتاط للأمر، وحصل من البابا على مرسوم بتمليكه جميع القارات والبحار والجزر التي يكتشفها البرتغاليون فيما وراء رأس بوجادور. وأقر هذا المرسوم ثلاثة بابوات آخرون، ووافقوا على تلك الهبة العجيبة التي جعلت البيت المالك البرتغالي صاحب الشرق المجهول وملايين السكان الذين فيه!

ذلك هو الضمان الذي كان الملك جوان يحمله. ولهذا، فإنه أحجم عن المغامرات الجديدة وأعرض عن ذلك الرجل المجهول الذي جاء من جنوى يطلب عمارة من السفن للبحث عن طريق الهند من الغرب! نعم، لقد استقبل الملك ذلك الرجل - خرستوفور كولومبو - في قصر لشبونة، ولم يرفض طلبه بجفاء، ولكن المسألة وقفت عند هذا الحد، فالناس كانوا يذكرون أن جميع المحاولات التي بذلت للوصول إلى جزر أنتيل وإلى البرازيل - التي لابد أن تكون واقعة في مكان ما إلى الغرب، بين أوروبا والهند - قد أسفرت عن فشل ذريع. ثم، ما الداعي إلى المغامرة بالأموال البرتغالية في البحث عن طريق الهند من الغرب، مادامت الطريق من الشرق قد فتحت، ومادامت مصانع السفن في نهر التاج تجهز العمارة التي ستبحر قريباً إلى الهند مباشرة بطريق

رأس الرجاء الصالح؟

ولهذا، فإن الخبر الذي أذيع فجأة، بأن كولومبو قد اجتاز بحر الظلمات لحساب إسبانيا، وبلغ اليابسة من الغرب بعد رحلة لم تدم أكثر من ثلاثة أسابيع، كان له في قصر الملك جوان وقع الصاعقة!

إذن، لقد جاء اليوم الذي مزق فيه الستار عن سر المحيط! نعم، إن كولومبو لم يدرك أنه اكتشف دنيا جديدة. وقد ظل هذا الرجل الغريب العنيد، حتى آخر ساعة من حياته، يؤكد أنه نزل في أرض آسيا، وأنه إذا واصل السير غرباً سيبلغ نهر الكنج بالهند! وذلك ما بعث الرعب في نفوس البرتغاليين. فأية فائدة بعد الآن لمرسوم البابا، الذي منح البرتغال جميع البلدان الواقعة في طريق الهند من الشرق، إذا كانت إسبانيا قد سبقته من الغرب، وانتزعت منه الهند! إذن، لابد من الالتجاء إلى السلاح للاحتفاظ بحقوق البرتغال في الهند، ومنع تدخل الجارة المزاحمة في الأمر!

لكن البابا حال بين الفريقين والحرب. ولما كانت الدولتان ـ إسبانيا والبرتغال ـ أحب الدول إلى قلبه لأنهما أكثر الدول طاعة له، فقد قسم بينهما مناصفة جميع بلدان العالم المجهولة!

لقد شطر البابا الكرة الأرضية شطرين متساويين بالمرسوم الصادر في ٤ مايو سنة ١٤٩٣. فجميع البلدان الواقعة في غرب الجزر الخضراء تخص إسبانيا. وجميع البلدان الواقعة في شرقها تخص البرتغال. ورضيت الدولتان بهذا التقسيم بادئ الأمر. ولكن البرتغال عادت فطلبت تعديله، بحيث يميل خط التقسيم إلى الغرب، ووافق البابا على هذا. وكانت النتيجة أن أصبحت بلاد البرازيل عندما اكتشفت من نصيب البرتغال!

ومهما يكن هذا الحل سخيفاً، لأنه يقسم العالم كله بين دولتين فقط، إلا أنه حال دون نشوب حرب بين إسبانيا والبرتغال بضعة قرون.

ولكن، أين الجزر التي تنتج التوابل، والتي يتوق المكتشفون إلى العثور عليها؟ أهي واقعة في غرب خط التقسيم أم في شرقه؟ أهي من نصيب إسبانيا أم من نصيب البرتغال؟ هذا ما يجهله الجميع: البابا، والملوك، والعلماء. وفي انتظار

نتيجة البحث، انصرفت إسبانيا إلى ابتلاع أمريكا، والبرتغال إلى ابتلاع إفريقية والهند.

أثار نجاح كولومبو دهشة لا حد لها في أوروبا، واستولى على الناس ميل جنوني إلى المغامرة، فإن نجاح شخص واحد يثير دائماً شجاعة معاصريه... فجميع الناس يريدون الآن الذهاب إلى العالم الجديد. وأخذ الحكام والتجار يجهزون السفن. وقد كان هنريك من قبل يلجأ إلى البابا لحث البحارة على العمل في سفنه. أما الآن فإن سكان القرى يزحفون جموعاً على الموانئ. والرحلات البحرية تتابع بلا انقطاع. وفي خلال عشرين أو ثلاثين سنة، ستكتشف السفن الصغيرة التي أقلعت من قادش وبالوس ولشبونة ما لم تكتشفه البشرية في العصور الخوالي.

ما أعجب تقويم تلك الحقبة من الزمن: ففي سنة ١٤٩٨، بلغ فاسكو دي جاما أرض الهند ونزل في كلكوتا، باسم ملك البرتغال. وفي السنة ذاتها، وصل كابو، القائم بخدمة ملك إنجلترا، إلى جزيرة الأرض الجديدة وبلغ الساحل الأمريكي. وفي السنة التالية، اكتشف بنزون لحساب إسبانيا، وكبرال لحساب البرتغال، أرض البرازيل، واكتشف كورتريال أرض لابرادور من جديد.

وفي السنوات الأولى من القرن التالي، تتابعت الفتوحات... هبطت حملتان برتغاليتان بمحاذاة ساحل أمريكا الجنوبية حتى ريو دي لابلاتا. واكتشف البرتغاليون جزيرة مدغشقر في سنة ١٥٠٦ وجزيرة موريس في سنة ١٥٠٧، وفي سنة ١٥٠٩ بلغوا ملقة واستولوا عليها في سنة ١٥١١ وبذلك قبضوا على مفتاح جزر الملايو. وفي سنة ١٥١٢ دخل بونس دي ليون شبه جزيرة فلوريدا. وفي سنة ١٥١٥ كان نونينز دي بلباو أول أوروبي أطل على المحيط الهادئ من أعالي داريان. ومنذ ذلك الحين عرفت البشرية جميع البحار.

في سنة ١٤١٨، في عهد هنريك، أثار بلوغ القوارب جزيرة ماديرا دهشة عظيمة. أما في سنة ١٥١٨، أي بعد مائة سنة، فإن السفن البرتغالية تلقي مراسيها في كنتون واليابان. ويغدو السفر إلى الهند أقل خطراً مما كان عليه السفر إلى رأس بوجادور. فقد أخذ وجه العالم يتغير سنة بعد سنة، وشهراً بعد آخر. فما يكاد علماء

الجغرافيا والرسامون ينتهون من خريطة جديدة، حتى يطرأ ما يدعو إلى تصحيحها، بسبب اكتشاف جديد. وفي خمسين سنة، وضعت القواعد الأساسية لجغرافية العالم وشكل الأرض، لأن البشرية اكتشفت أخيراً الكرة التي عاشت عليها منذ الأزل؛ وقد كان هذا العمل الهائل من صنع جيل واحد من الناس. فإن بحارة ذلك الجيل قد تغلبوا على جميع الصعاب حتى شقوا الطريق لمن جاؤوا بعدهم، وفتح مغامروه جميع القارات والبحار. وحل أبطاله كل العقد أو جلها. ولم يبق غير عمل واحد لم يتم وهو الطواف حول العالم في سفينة واحدة، وإثبات كروية الأرض. وهذا كان هدف ماجلان.

ماجلان في الهند

مارس ١٥٠٥ - يونية ١٥١٢

إن السفن الأولى التي أقلعت من لشبونة وهبطت نهر التاج وانطلقت نحو المجهول، قد استخدمت لاكتشاف أراض جديدة. والسفن التي تلتها في الدفعة الثانية كان هدفها التجارة مع البلدان المكتشفة، أما العمارة الثالثة، فقد جهزت للقيام بأعمال حربية، ففي يوم ٢٥ مارس سنة ١٥٠٥، بدأ عهد الاستعمار الذي كان يوطد دعائمه دائماً على ثلاث مراحل اتبعت خلال عدة أجيال: ففي بادئ الأمر ينشأ مركز للتجارة، ثم تشاد بجانبه قلعة بحجة حمايته. وبعد أن يتبادل المستعمرون التجارة مع حكام الأقطار الجديدة، ينقلون الجيوش من بلادهم لانتزاع تلك الأقطار من حكامها والاستئثار بمنتجاتها.

إن النجاح الذي حالف البرتغال عشرة أعوام، أنساها أن هدفها أول الأمر كان اكتساب مكان متواضع في تجارة التوابل. ولكن منذ اليوم الذي نزل فيه فاسكو دي جاما في الهند، طمعت البرتغال في الاحتفاظ لنفسها بالفوائد كلها، وجعلت تنظر إلى الهند والبرازيل وأفريقيا كأنها أملاكها الخاصة. فمن جبل طارق إلى سنغافورة إلى الصين، لا يحق لسفينة أن تمخر العباب ولا يسمح لأحد بالتجارة في ذلك الشطر من الأرض، الذي أصبح ملكاً لأصغر أمة في أوروبا.

ولقد كان منظراً غاية في الروعة، منظر تلك العمارة الحربية البرتغالية، التي أقلعت من لشبونة في اليوم الخامس والعشرين من شهر مارس سنة ١٥٠٥، لفتح إمبراطورية جديدة.

لقد كانت تتألف من عشرين سفينة ضخمة لا وجه للمقارنة بينها وبين السفن السابقة في عهد هنريك. فهي معدة للغزو والفتح، مجهزة بالأشرعة المتينة المتعددة،

يديرها ملاحون مهرة كثيرو العدد، ويستقلها خمسمائة جندي مدربون على القتال مسلحون أكمل تسليح تشد أزرهم مائتا آلة لقذف القنابل. وقد صحب الحملة جماعة من النجارين والعمال مزودين بالأدوات اللازمة لصنع سفن جديدة بعد بلوغ الهند.

ذلك هو الأسطول الذي أعد لغزو الشرق وقد منح الأميرال فرانشسكو الميده لقب «نائب الملك للهند»، وأشرف على إعداد العمارة أول ربابنة البرتغال، فاسكو دي جاما، الملقب بأمير بحار الهند. وكانت الخطة المرسومة تقضي بتدمير جميع مراكز التجارة على طريق الهند، وإنشاء مراكز برتغالية مكانها، والسيطرة على جميع المضايق من جبل طارق إلى سنغافورة، وإغلاق البحر الأحمر والخليج العربي والمحيط الهندي أمام أية تجارة أجنبية، بحيث لا يخفق بين الشرق والغرب غير علم واحد: علم البرتغال!

وأقيمت صلاة حضرها الجنود جميعاً، وتسلم الأميرال الميده علمه من يد الملك، واخترق رجال الحملة شوارع لشبونة في طريقهم إلى السفن التي أقلعت بهم بعد أن وعدهم قائدهم بأنهم سيفتحون العالم من أقصاه إلى أقصاه.

* * *

وكان بين الجنود الذين ركعوا في الكنيسة وقت الصلاة، شاب في الرابعة والعشرين من عمره، كان لا يزال خامل الذكر، يدعى فرناو دي ماجلان. وكل ما عرف عنه أنه ولد في سنة ١٤٨٠، وتضاربت الآراء في تحديد المكان الذي ولد فيه. ويغلب على الظن أنه ولد في أوبرتو. أما أسرته فمن الطبقة الرابعة بين الأسر النبيلة. ولم يكن قد شغل مناصب تذكر، فالتحق بحملة الهند جندياً بسيطاً، من آلاف «الجنود المجهولين» الذاهبين لفتح العالم، والذين لن يعود منهم غير نفر قليل، ويستأثر واحد منهم فقط بالمجد الخالد الذي اشتركوا جميعاً في تشييده!

* * *

ليس ماجلان إذن، في تلك الرحلة، غير واحد من ألف وخمسمائة رجل يقودهم الأميرال الميده، وعبثاً نبحث عن اسمه في يوميات حروب الهند. ولا يمكننا أن نقول عن تلك الحقبة من حياته سوى أنها كانت سلسلة من التجارب. فإن ماجلان كان

يقوم بجميع الأعمال التي يقوم بها جندي بسيط. ولهذا، فقد تعلم كل شيء ساعده على تمهيد السبيل للعمل العظيم الذي اضطلع به فيما بعد وغيّر به وجه العالم. وقد اشترك ماجلان للمرة الأولى في القتال في معركة كنانور البحرية في ١٦ مارس ١٥٠٦.

إن هذه المعركة تعد من الأيام الفاصلة في الحروب البرتغالية الاستعمارية... فإن صاحب كلكوت كان قد أحسن استقبال فاسكو دي جاما عندما نزل في عاصمته في سنة ١٤٩٨ وأبدى استعداده لإنشاء علاقات تجارية مع البرتغال. ولكن، لما عاد إليه فيما بعد، على سفن أكبر حجماً وأوفر تسليحاً، أدرك الرجل أنهم يضمرون الاستيلاء على الهند، وتخوف التجار الهنود والمسلمون من أولئك الدخلاء الطامعين، الذين سيطروا على البحار. ونجم عن ذلك توقف سير القوافل ونقل السلع والمنتجات. ولم يعد ممكنا وضع حد لوثبة البرتغاليين الاستعمارية إلا بالقوة. فنشبت بينهما معركة... وكان النصر حليف البرتغاليين، ففتحت لهم هذه المعركة البحرية منافذ الهند نهائياً، وبلغت خسائرهم في الرجال ثمانين قتيلاً ومائتي جريح.

وكان ماجلان بين الجرحى، فنقل إلى إفريقيا وانقطعت أخباره لأنه لم يكن غير جندي بسيط لا يثير اهتمام أحد. ويغلب على الظن أنه عاد إلى البرتغال في سنة ١٥٠٧، وجعل يفكر من جديد في استئناف رحلاته.

***

أما العمارة التي أقلعت في هذه المرة إلى الهند، والتي كان ماجلان أحد رجالها، فقد عهد إليها بمهمة خاصة. فإن رفيقه لودفيكو فارتيما قد أطلع بلاط الملك على ما في مدينة ملقة من ثروة، وأفضى إليه بمعلومات دقيقة عن الجزر التي تنتج التوابل. ولهذا، فقد أدرك رجال البلاط البرتغالي أن فتح الهند والاستيلاء على كنوزها يجب أن يعقبه احتلال تلك الجزر، وليس ذلك بمستطاع إلا بغزو ملقة مفتاح تلك الجزر، ولكن البرتغاليين لم يرسلوا أسطولاً حربياً بل عمدوا إلى حيلة لا تخطئ. فقد كلفوا لوبيز دي كويرا بأن يقترب حذراً من ملقة بأربع سفن، لكي يجس النبض متظاهراً بأنه تاجر مسالم.

وبلغت العمارة سواحل الهند في إبرايل ١٥٠٩، فإن الرحلة التي قام بها فاسكو دي جاما من قبل، وخلدت اسمه في التاريخ، أصبحت الآن، بعد مضي عشرة أعوام، من الرحلات العادية التي يقوم بها أي ربان في البحرية البرتغالية. وأصبحت الطريق من لشبونة إلى ممباسة، ومن ميباسة إلى الهند، معروفة مطروقة. وفي ١٩ أغسطس ١٥٠٩، أقلعت عمارة سكويرا من جديد ووجهتها الشرق، وللمرة الأولى جابت السفن البرتغالية بحاراً كانت تجهل مسالكها.

وبعد رحلة استغرقت ثلاثة أسابيع، أطلت السفن على ملقة في ١١ سبتمبر ١٥٠٩، ووثق البرتغاليون أن فارتيما لم يكن كاذباً عندما قال لهم إن عدد السفن التي ترسو في ميناء ملقة لا يعادله عدد منها بأي مرفأ في العالم. فقد رأوا في ملقة سفناً من كل حجم وكل لون، جاءت من الملايو والصين وسيام، وكان لابد لها من المرور بمضيق ملقة نظراً لمركزه الجغرافي، الذي جعل منه أعظم سوق في الشرق. فكل سفينة تقلع من الشرق إلى الغرب، ومن الشمال إلى الجنوب، ومن الهند إلى الصين، ومن جزر ملوك إلى بلاد العجم، وتجتاز مضيق ملقة، وتلقي مراسيها في ميناء المدينة التي صارت مستودعاً يتبادل فيه التجار مختلف السلع.

وقف البرتغاليون في سفنهم معجبين بتلك المدينة الزاهرة، وطمعوا في تلك اللؤلؤة الشرقية ليجعلوا منها أجمل جوهرة في تاج الإمبراطورية البرتغالية. ووقف صاحب المدينة ووزراؤه من ناحيتهم يرقبون تلك السفن الغريبة القوية بعين الدهشة والقلق. لقد سمع السلطان بفتك تلك المدافع التي ينقلونها معهم، والتي تبدو فوهاتها من خلال طاقات السفن، وعلم أن أولئك القراصنة البيض يقاتلون كالشياطين. وعلى هذا فإن الوسيلة المثلى أن يقابل كذبهم بالكذب، ودهاءهم بالدهاء، وأن يتخذ الأهبة لإحباط وثبتهم.

واستقبل سلطان ملقة رسل سكويرا وبالغ في الترحيب بهم. ودعا رؤساء الحملة لتناول العشاء في قصره، ولكنهم اعتذروا. غير أن الجنود والبحارة تفرقوا في المدينة الغريبة المضيافة، وقد سرهم أن يختالوا على الأرض الثابتة التي لا تتأرجح بهم كظهور السفن، ويداعبوا النساء، ويدخلوا بيوتاً نظيفة، ويشربوا الشاي، ويأكلوا

الثمار اللذيذة، ويبتاعوا من الأسواق ما شاؤوا، فإنهم لم يلاقوا ترحيباً مثل هذا الترحيب منذ غادروا لشبونة.

وهرع مواطنو المدينة من ناحيتهم، في زوارقهم الخفيفة، إلى السفن البرتغالية، وتسلقوها كالقردة، ونشأت معاملات سلمية بينهم وبين البحارة. وأسف البرتغاليون كثيراً عندما بلغهم أن السلطان قد جمع لهم المنتجات التي طلبوها وأعدها للشحن، وطلب من سكويرا إرسال قواربه إلى رصيف الميناء في الصباح التالي لنقلها إلى السفن.

وكان فرح سكويرا عظيماً، لحصوله على التوابل الثمينة بهذه السرعة. فأرسل في اليوم التالي قواربه لتسلمها، وبات ينتظر على ظهر سفينته يلعب الشطرنج مع أحد رفاقه، بينما كانت السفن الأخرى تتمايل على سطح البحر في طمأنينة وهدوء.

غير أن جرسيا دي سوزا، قائد السفينة الحربية المرافقة للقافلة فطن إلى تكاثر عدد القادمين من البر في زوارقهم الصغيرة، وتسلق عدد كبير منهم جوانب السفن وانتشارهم فيها، فخشي أن يكون في الأمر سر، وأن يكون السلطان قد نصب للبرتغاليين فخاً في البر والبحر. فاختار من رجاله رسولاً أوفده تواً إلى سكويرا ينبهه إلى الخطر.

وكان الرجل الذي اختاره: ماجلان...

أسرع الرسول إلى سفينة القيادة فألفى سكويرا يلعب الشطرنج، وسط حلقة من الوطنيين المسلحين...

وهمس ماجلان في أذنه كلمات أيقظت الرجل من غفلته. وما كاد يفكر في اتخاذ الحيطة حتى ارتفع في الجو عمود من الدخان، تصاعد من قصر السلطان في المدينة إشارة ببدء الهجوم على البرتغاليين في البر والبحر. ولكن يقظة سوزا وإقدام ماجلان أنقذا العمارة من الهلاك. فقد رد البرتغاليون الهجوم عن سفنهم وتمكنوا من الابتعاد عن الشاطئ.

ولكن الذين كانوا في المدينة وقعوا في أيدي المهاجمين، بعد أن قطعوا خط الرجعة على القوارب التي أرسلت لنقل البضائع، وفتكوا بهم جميعاً إلا واحداً فقط،

هو فرانشسكو سراو صديق ماجلان. فقد أنقذه ماجلان نفسه من الهلاك. وانتزعه من أيدي الوطنيين مثخناً بالجراح، وعاد به في زورقه إلى السفن. وقد خسر البرتغاليون في هذه المعركة قواربهم التي دخلت الميناء وثلث رجالهم!

واسترعت شجاعة ماجلان أنظار القيادة العليا، فلم يمض إلا وقت قصير حتى عين ضابطاً في الأسطول الذي عهد إليه بالثأر للهزيمة التي لحقت بسكويرا في ملقة.

وهكذا سلك ماجلان من جديد طريق الشرق الأقصى. وفي شهر يوليو سنة ١٥١١، رست تجاه ملقة تسع عشرة سفينة برتغالية ونشب قتال عنيف، استمر ستة أسابيع حتى تمكن البوكرك من القضاء على جيش السلطان. وانطلق البرتغاليون ينهبون المدينة، فكانت الأسلاب فوق ما كانوا يأملون.

وفتح الاستيلاء على ملقة طريق الشرق على مصراعيه أمام البرتغال. وكان لهذا الانتصار وقع عظيم في الصين واليابان وأوروبا. وأرسل البرتغاليون وفداً إلى الغرب برئاسة ترستاو دي كونها، يحمل معه هدايا كثيرة بينها خيول مطهمة ونمور وفهود. وكان أغرب ما جاء به الوفد فيل نقلته إحدى السفن حياً!...

وطمعت البرتغال في الاستيلاء على الجزر التي تنتج التوابل: أمبوانا وبندا وترنات وتيدور. فأقلعت ثلاث سفن بقيادة أنطونيو أبرو للكشف عن تلك الجزر واحتلالها. وقال بعض المؤرخين إن ماجلان اشترك في تلك الحملة. ولكنه في الواقع نفض يده من الشرق منذ ذلك الوقت. وماجلان، الذي كان يحلم بجزر التوابل، لم ير هذه الجزر بعينيه، ولم يطأها بقدميه، فظلت بالنسبة إليه حلماً من الأحلام...

كان ماجلان أوسع اطلاعاً على ما تحويه جزر التوابل من جميع معاصريه بفضل المعلومات التي استقاها من صديقه فرانشسكو سراو. فان رحلة هذا الربان المغامر كان لها أثر بعيد في مصير ماجلان فيما بعد. ولابد لنا من أن نشير هنا إلى عمل ذلك البحار الجريء المجهول.

افترق سراو عن صديقه ماجلان في ملقة، فعاد ماجلان إلى لشبونة، وأقلع سراو مع سفينتين ووجهته الجزر الخرافية. ووصل مع رفاقه إلى جزر ملوك التي لم يكن المسلمون قد بلغوها بعد ونشروا فيها حضارتهم. فكان سكان هذه الجزر

يعيشون على الفطرة عراة الأجساد، يجهلون بطبيعة الحال التعامل بالنقود ولا يسعون وراء الربح. ولذلك حملوا إلى البرتغاليين كميات هائلة من القرنفل نظير بعض الأساور والأجراس الصغيرة. وما إن انتهى البرتغاليون من زيارة جزيرتي بندا وأمبوانا حتى كانوا قد ملأوا السفينتين بالتوابل. وأراد أمير البحر البرو أن يضع تلك الشحنة في مكان أمين، فقرر ألا يواصل السفر إلى الجزر الأخرى وأقلع في الحال عائداً إلى ملقة.

غير أن طمع البرتغاليين جعلهم يثقلون الأحمال على السفينتين. فارتطمت أحدهما بصخرة وتحطمت - وهي التي يقودها فرانشسكو سراو، ولم ينج الربان ورجاله بحياتهم إلا بعد جهد عظيم. وظلوا حيناً تائهين على ساحل مجهول، حتى تيسر لهم الاستيلاء على سفينة القراصنة فعادوا بها إلى أمبوانا. وهناك، استقبلهم زعيمها بالترحاب كما فعل من قبل حين جاؤوا إليه في السفينتين الكبيرتين.

وكان الواجب يقضي على سراو أن يلحق برئيسه أمير البحر في أحد المراكب الذاهبة إلى ملقة. وفاء بالقسم الذي قطعه على نفسه. ولكن الإقامة في ذلك الفردوس راقت له، وأضعفت في نفسه الشعور بالواجب العسكري. إنه يريد أن ينعم بالحياة الهادئة كما ينعم بها أولئك العراة في الجزيرة المحظوظة. وليواصل البحارة الآخرون ذرع البحار بسفنهم، وبذل دمهم وعرقهم ثمناً للبهار والقرفة، لمصلحة الوسطاء الأجانب. وليكدحوا ليملأوا صناديق الخزانة في لشبونة. أما هو، فكفاه حروباً ومغامرات ومتاجرة!

لقد عينه ملك ترنات وزيراً للمملكة، وهذا منصب لا يثقل كاهله، فليس عليه إلا أن يظهر إلى جانب مليكه في مناسبة إعلان حرب لا أهمية لها، كمستشار له، ومقابل ذلك، يعطيه الملك بيتاً وخدماً عبيداً، ويعطيه أيضاً زوجة من نساء القبيلة ستلد له اثنين أو ثلاثة من الأبناء!

وقضى فرانشسكو سراو تسعة أعوام في تلك الجزر، لم تنقطع أثناءها صلته بصديقه ماجلان بالرغم من البحار الحائلة بينهما. فكان يكتب إليه، كلما أقلعت سفينة إلى ملقة والبرتغال، واصفاً له حياته في جزر ملوك قائلاً له: «لقد اكتشفت

هنا عالماً جديداً، أغنى وأوسع من العالم الذي اكتشفه فاسكو دي جاما». وكان يحض صديقه أن يهجر البرتغال ويلحق به في عزلته. ولاشك أن سراو هو الذي أوعز إلى صديقه ماجلان بالبحث عن طريق يبلغ جزر التوابل من الغرب ـ وهو الطريق الذي سلكه كولومبو ـ بدلاً من الطريق الشرقي الطويل.

ويغلب على الظن أن ماجلان وصديقه رسما خطة مشتركة. فقد وجد بين مخلفات سراو بعد موته خطاب من ماجلان يعده فيه باللحاق به إلى جزيرة ترنات، إن لم يكن بالطريق التي ألفها البرتغاليون، فبطريق أخرى.

* * *

فكرة الطريق الجديدة، وآثار جراح بقيت على جسده، وعبد اشتراه في ملقة... هذه هي ثروة ماجلان التي حملها وهو عائد إلى وطنه سنة ١٥١٢، بعد سبعة أعوام قضاها في الهند. ولشد ما دهش حين بلغ الوطن، فرأى وجه لشبونة والبرتغال قد كسته يد الأيام طلاء براقاً غير ملامحه القديمة.

ففي مكان الكنيسة الصغيرة في بليم، تقوم الآن كاتدرائية فخمة تنطق بالثراء الذي حملته التوابل معها من الشرق.

وعلى ضفتي النهر، تصخب أصوات المطارق في مصانع ضخمة تعمل دائبة في تشييد أساطيل جديدة. وفي الميناء تتزاحم السفن خافقة عليها راياتها المختلفة. ومستودعات المرفأ تعج بالبضائع. وفي الشوارع يسير الجمهور في ضوضاء، بين القصور الفاخرة الحديثة، وفي المصارف والحوانيت ومكاتب الوسطاء تسمع جميع اللغات. فإن لشبونة، المدينة الصغيرة، قد أصبحت بفضل احتلال البرتغاليين للهند، مركزاً عالمياً وعاصمة فخمة. وأصبحت سيدات المدينة يخرجن في مركباتهن وقد تحلين بلآلئ الهند!...

لقد تغير كل شيء وغدا أوفر عظمة وكمالاً مما كان. وماجلان وحده لم يتغير... فإنه ما زال الجندي المجهول الذي لا يرقب عودته أحد، ولا يشكره أحد، ولا يحييه أحد!

ماجلان يتحرر

يونية ١٥١٢ - اكتوبر ١٥١٧

إن العصور التي تتصف بالأعمال المجيدة كثيراً ما تنقصها المشاعر الإنسانية الرفيعة، فإن أولئك الغزاة الذين وهبوا لإسبانيا والبرتغال دنيا جديدة لم يلاقوا من ملوكهم كفاء ما جاهدوا وصنعوا، فكولومبو عاد إلى إشبيلية مصفداً بالأغلال. وكورتز عاش مغضوباً عليه. وبيزارو مات مقتولاً. ونونيز دي بلباو الذي اكتشف المحيط الهادئ، قطع رأسه. وكامورانس، الشاعر الجندي البرتغالي، لبث أعواماً في سجن قذر، مثل سرفانتس. فما أفظع نكران الجميل في عصر الاكتشافات!

لقد أصبح المستغلون حكاماً لمقاطعات جديدة، وطفقوا يختزنون الذهب أكداساً، ويحرمون من الغنيمة أولئك الضباط والجنود الطيبين الذين ارتكبوا خطأ العودة إلى وطنهم بعدما أنهكوا أنفسهم بالحرمان والتضحية، وقضوا في المستعمرات الجديدة سنوات عجافاً طوالاً.

إن خوض معركتي كتانور وملقة، وغيرهما من المعارك التي لا حصر لها، والمخاطرة بالحياة والصحة مائة مرة في سبيل البرتغال، كل هذا لم يشفع لماجلان في أيسر ترقية بعد أوبته. وما منح الرجل معاشاً شهرياً بسيطاً إلا لكونه من أسرة نبيلة، فلما احتج على ذلك استبدل بالمعاش وظيفة صغيرة بالبلاط الملكي لم يقم فيها بأي عمل حتى أنف من ذلك وأبى أن يتناول مرتباً دون أن يصنع شيئاً. وجعل يتحين الفرصة للانطلاق في مغامرة جديدة.

واضطر إلى الانتظار سنة كاملة، حتى نظم الملك مانويلو في سنة ١٥١٣ حملة لمحاربة القراصنة في المغرب فالتحق بها ماجلان. ولكنه لم يكن فيها غير ضابط مساعد بالرغم من خبرته الواسعة في الملاحة والحرب البحرية. ولم يظهر اسمه قط في

التقارير الرسمية ـ كما كانت الحال في الهند ـ بالرغم من أنه كان دائماً يتقدم الصفوف، وجرح الرجل للمرة الثالثة في قتال بالسلاح الأبيض، فأصيب بطعنة رمح في ركبته اليسرى ظلت قدمه بسببها نصف مشلولة طول حياته...

ورفض ماجلان العودة إلى بلاده والمطالبة بمعاش يكفيه، وأصر على البقاء في الجيش ومواجهة الأخطار... فعهد إليه، مع ضابط آخر، بحراسة قطعان الماشية التي نهبها البرتغاليون من المغاربة. وهنا وقعت حادثة كان لها بالنسبة إليه شأنها، فقد هربت بعض الخراف ليلاً من حظائرها. فراحت ألسنة السوء تتهم ماجلان ورفيقه بأنهما باعاها سراً، فقرر العودة إلى بلاده، وأبحر إليها قبل أن يجرؤ أحد على اتهامه علناً.

***

وما كاد ماجلان يصل إلى لشبونة حتى طلب مقابلة الملك، لا ليدافع عن نفسه أو يبرر سلوكه، بل ليطالب بعمل يليق به وبمرتب أعلى من مرتبه. ولكن الملك أحيط علماً بأن ذلك الضابط الجامح قد غادر المغرب بإرادته، دون أن يطلب إذناً بذلك. فقطع عليه الكلام، وأمره أن يعود إلى وظيفته في إفريقيا ويضع نفسه تحت تصرف القيادة.

وامتثل ماجلان للأمر احتراماً للنظام، وأبحر إلى إفريقيا بأول سفينة دون أن يجرؤ أحد على توجيه أية تهمة إليه، بل إن القيادة منحته إذناً بترك الجيش عزيزاً مكرماً، وزودته بجميع الوثائق التي تثبت براءته وتشيد بخدماته، فرجع ماجلان إلى لشبونة والأسى يحز في نفسه، فقد رأى نفسه غرضاً للأقاويل بدلاً من أن ينال الترقية التي يستأهلها وكانت المكافأة الوحيدة التي بقيت له آثار الجراح التي أصيب بها.

وقد سكت طويلاً وظل قابعاً في الظلام. ولكنه الآن قد بلغ الخامسة والثلاثين، وهو لا يسأل إحساناً، وإنما يطلب حقاً صراحاً.

كانت الحكمة توحي إلى ماجلان ألا يذهب من فوره إلى الملك بعد أوبته، وألا يضايقه بتكرار الطلبات التي تقدم بها من قبل. وكان ينبغي أن يصمت حتى يكسب لنفسه أنصاراً وأعواناً في البلاط.

ولكن ذلك الرجل القصير الهادئ كان يجهل فن التحبب إلى الكبار والصغار على السواء. وهو إلى ذلك كان قاصراً عن التعبير عن آرائه بطلاقة. وهكذا كان هذا

الناسك المنكمش في عزلته، الصامت الذي لا يتكلم، يخلق حوله جواً ملبداً بالريب والظنون.

وذهب ماجلان، في هذه المرة أيضاً، إلى الملك وحيداً، دون أن يؤيده أحد أو يسنده صديق... لقد اختار الطريق الصريحة المباشرة، وهي أسوأ الطرق للذهاب إلى البلاط، وقد استقبله الملك مانويلو في الغرفة ذاتها، التي استقبل فيها سلفه جوان الثاني المغامر كولومبو وطرده من حضرته، فتكرر المشهد التاريخي في المكان ذاته.

لقد رفع ماجلان إلى الملك الوثائق التي تنفي نفياً قاطعاً تلك التهمة الباطلة التي وجهت إليه. ثم التمس بسبب جراحه التي جعلته عاجزاً عن مواصلة الخدمة، أن يرفع مرتبه ولو قدراً بسيطاً.

ونظر مانويلو إلى الزائر مقطب الجبين، فقد ضايقه أسلوبه في الطلب، ثم نهره وأمره بالخروج فوراً من حضرته.

فلم يجد ماجلان بداً من أن يسأل جلالته إذا كان لديه اعتراض في أن يلتحق بخدمة دولة أجنبية، قد يجد عندها الترقية التي يرغب فيها؟ فوافق الملك مبدياً عدم اكتراثه بالأمر. وهكذا فهم ماجلان أن بلاط البرتغال يرحب بالاستغناء عن خدمته كل الترحيب!

وأحس ماجلان أنه بالغ في التضحية بنفسه من أجل مصلحة غيره، وأنه قد آن أن يحلق بجناحيه في جو الحرية ويعيش من أجل نفسه... لقد أنكره وطنه، فسقط عنه كل واجب لوطنه عليه وكل فرض نحوه.

* * *

بقي ماجلان، بعد رفض الملك، سنة كاملة في البرتغال، دون أن يعلم أحد ماذا يصنع. وكل ما عرف عنه، أنه كان كثير الاتصال بالربابنة والبحارة القادمين من البحار الجنوبية... كما كان كثير التردد على المكتبات لمطالعة الخرائط والتقارير والكتب الخاصة بالرحلات الأخيرة إلى البرازيل.

وتوثقت عرى الصداقة، في هذه الفترة، بين ماجلان وشاب يدعى روي فاليرو، وهي صداقة غريبة، للتفاوت العظيم بين أخلاق الرجلين... فإن فاليرو سريع التأثر،

عصبي المزاج، متكبر، مشاكس، على عكس ماجلان الصامت الهادئ الغامض، ولكن مزايا الصديقين المتعارضة أدت إلى نتائج عجيبة. فكل منهما يتمم الآخر... فقد قضى فاليرو حياته في دراسة الخرائط والرسوم ومطالعة الكتب، حتى اعتبره مواطنوه أبرع من رسم خريطة في البرتغال. وهو يجهل كل شيء عن مهنة البحار وعمله، ولكنه يعرف كل شيء من الناحية النظرية. ولهذا فإن صداقته لماجلان ستعود بفوائد عظيمة على الرحالة المغامر.

وجمع بين الصديقين وجه شبه من حيث المعاملة التي لقياها. فكل منهما قد جرح في كرامته ومنعه الملك من أداء رسالته...

كان فاليرو طامعاً في وظيفة فلكي في البلاط. وكان جديراً بها، ولكنه أزعج الملك بطبعه الصاخب كما أزعجه ماجلان بطبعه الجاف. وكان خصوم فاليرو يصمونه بالجنون. بل إن بعضهم ادعى أنه ذو صلة بالجن، ليثير عليه نقمة محاكم التفتيش. وقد قربت هذه المعاملة التي لقيها الرجلان بينهما. فدرس فاليرو مشروعات صديقه وأبدى له رأيه فيها. واتفق الاثنان على التعاون معاً، وعلى تكتم مشروعهما حتى يأزف موعد تنفيذه فينفذانه دون أن يستجديا وطنهما عوناً، بل ينفذانه ولو جلب على وطنهما الخسائر والأضرار!

***

ما هو ذلك المشروع الذي يتناقش فيه ماجلان وفاليرو؟ وأي خطر له حتى يتكتمه الاثنان، وما قيمته التي تدفعهما إلى طيه سراً مكتوماً في صدريهما؟

إن الرد على هذا السؤال يبدو أول وهلة تافهاً، فما كان المشروع إلا استئناف الفكرة الأولى التي أفضى بها سراو إلى صديقه ماجلان، فكرة البحث عن طريق يصل بين البرتغال وجزر التوابل، من الغرب لا من الشرق. فلا يطوفان حول أفريقيا بل يدوران حول أمريكا. وقد كانت الخرائط المتداولة ترسم أمريكا الجنوبية متصلة بالقطب الجنوبي. ولم يكن أحد يفكر في إمكان اجتياز المحيط الإطلنطي، والانتقال منه إلى المحيط الهادئ، في سفينة واحدة. ، أما ماجلان، فإنه يعتقد أن هذا ممكن، وذلك هو السر الذي يكتمه وصديقه فاليرو.

ولكن، كـيـف عـرف مـاجـلان أن هناك ممراً بين المحـيـطين فـي الطرف الجنوبي لأمريكا؟ هل عرف ذلك من رجل سبقه إلى ذلك الممر فيكون قد انتحل لنفسه عمل غيره. ولا يكون ثمة ما يبرر إطلاق اسمه على «مضيق ماجلان»، كما أطلق اسم أمريكو فسبوسي على أمريكا التي اكتشفها كولومبو؟!

إننا مدينون بالمعلومات الخاصة بهذا الاكتشاف إلى أنطونيو بيجافيتا، رفيق ماجلان في رحلته ومدون قصة حياته. فقد كتب بيجافيتا يقول إنهم عندما بلغوا المضيق الذي أطلق عليه اسم ماجلان، لم يكن أحد منهم يصدق أن هناك ممراً، عدا ماجلان وحده، وقد استنتج ماجلان ذلك من خريطة وضعها من قبل مرتان بيهايم، وعثر عليها ماجلان في مكتبة الملك بلشبونة. وكان مرتان بيهايم هذا رسام الخرائط في قصر الملك، وكان ماجلان كثير التردد على المكتبة الملكية. ولابد أنه اطلع فيها على خريطة وضعها مرتان بيهايم وأشار فيها إلى وجود ذلك الممر بين المحيطين. ولكن بيهايم لم يقم بأية رحلة في حياته. فمن أين له العلم بجود الممر؟ أهناك رجال سبقوا ماجلان إلى تلك البحار واكتشفوا الممر وأطلعوا بيهايم على اكتشافهم وبقيت أسماؤهم مجهولة؟

لقد تعددت الآراء في هذا الموضوع، ولكن الراجح أنه قبل ماجلان، لم يصل أحد إلى الممر الذي اكتشفه وأطلق عليه اسمه، وإن كان غيره قد فطنوا قبلاً إلى وجود الممر وحاولوا الوصول إليه. وقد وصل بعضهم إلى طريق بحري توغلوا فيه قليلاً، وظنوه خليجاً كبيراً ثم نكصوا على أعقابهم أمام عنف التيارات والزوابع. ولم يكن ذلك الطريق غير مصب نهر لابلاتا الهائل... أما الممر الذي يعرف الآن بمضيق ماجلان فإنه يقع في جنوب ذلك النهر عند طرف الجمهورية الفضية. وقد كان ماجلان نفسه يعتقد أن تلك الطريق التي بلغها غيره من قبل، ورسمها بيهايم في خريطته، هي المنفذ الذي يبحث عنه بين المحيطين. فماجلان بنى مشروعه إذن على فكرة خاطئة. ولكنه لو لم يؤكد أنه عارف بسر الممر المنشود، لما سلموه قيادة عمارة بحرية لينطلق بها في البحار. وكما أسفرت نظرية كولومبو الخاطئة عن اكتشاف العالم الجديد، فقد تمخضت نظرية ماجلان الخاطئة كذلك عن اكتشاف المنفذ بين المحيط الإطلنطي والمحيط الهادئ.

فكرة تتحقق

اكتوبر ١٥١٧ - مارس ١٥١٨

إن ماجلان يوشك أن يتخذ الآن قراراً خطيراً. فقد وضع خطة جريئة لم يضع بحار من قبل خطة تماثلها. وهو يعتقد أنها ناجحة لاشك في ذلك. ولكن، كيف السبيل إلى تنفيذ مشروع جريء إلى هذا الحد؟ إن أحداً من أصدقائه أصحاب السفن البرتغاليين، لن يجرؤ على تسليم القيادة لرجل مغضوب عليه في البلاط. إذن، لم يبق أمامه غير وسيلة واحدة، هي أن يعرض مشروعه على إسبانيا. فهناك فقط يجد المساعدة المنشودة، ويصبح موضع اهتمام، لأنه سيقدم لإسبانيا صكاً بملكية جزر التوابل، التي أكد له شريكه فاليرو أنها واقعة في نطاق القسم الذي جعله البابا من نصيب إسبانيا، في مشروع التقسيم الذي أجراه...

وجزر التوابل أغنى جزر في العالم. وماجلان يعرف أقرب الطرق المؤدية إليها. ولهذا، فإن البلاط الإسباني سيرحب به، ويمكنه من تحقيق أمنية العمر، وإن كان ذلك مقابل تضحية أليمة، لأن ماجلان يعلم أن التجاءه إلى إسبانيا سيثير عليه نقمة مواطنيه البرتغاليين، ويصمه بوصمة الخيانة.

***

لقد انقضت الآن فترة التأهب... وفي سنة ١٥١٧ بدأ ماجلان ينفذ خطته، فغادر شريكه فاليرو مؤقتاً في البرتغال، واجتاز الحدود الإسبانية. وفي ٢٠ أكتوبر، وصل إلى أشبيلية مع خادمه هنريك، الذي يتبعه كخياله منذ بضعة أعوام. ولم تكن أشبيلية في ذلك الوقت مقراً للملك الجديد، كارلوس الأول، الذي عرف فيما بعد باسم شارلكان، فقد كان الملك وقتئذ في الثامنة عشرة من عمره. وقد غادر بلاد فلاندر إلى سانتاندر، ثم غادرها في طريقه إلى فلادوليد ـ أي بلد الوليد، حيث

اعتزم الإقامة مع حاشيته منذ شهر نوفمبر.

وماجلان لا يجهل أن هذا الميناء إنما هو عتبة الهند، وإن معظم السفن الذاهبة إلى الغرب تقلع عنه.

وقد تراكمت البضائع في الميناء حتى اضطر الملك إلى إنشاء مؤسسة فيه باسم «بيت الهند»، وهي في آن واحد مصرف وسوق تجارية وشركة نقل بحرية وغرفة تجارية ومكتب للاستعلامات حيث يلتقي رجال الأعمال وربابنة السفن ويعقدون اتفاقاتهم تحت إشراف الحكومة. وكان لابد لكل من انتوى رحلة جديدة، أن يذهب أولاً إلى بيت الهند ليحصل على الإذن والمساعدة.

ولكن ماجلان لم يسر على هذه القاعدة. فهو يدرك أن رجال تلك المؤسسة يجهلونه، وأنه لا يجمل به أن يلج بابها قبل أن يطرق له الباب صديق مخلص، فذهب إلى بيت ديجو بربوسا، وهو برتغالي مثله تنازل عن جنسيته وشغل منذ أربعة عشر عاماً منصب مدير مستودع الأسلحة. وهو يتمتع بسمعة طيبة. وفي وسعه أن يكون خير ضامن لماجلان. وبربوسا ممن سبق لهم الطواف في بحار الهند، وقد ورث عنه ابنه دوارثي بربوسا حب المقامرة، وطاف مثله في بحار الهند وفارس والملايو ووضع كتاباً عن رحلاته.

توثقت عرى الصداقة بين الثلاثة... وعرض بربوسا على ماجلان أن يقيم في بيته. وما مرت سنة على إقامته في بيت صديقه حتى تزوج ابنته بربارة، وأصبح ماجلان صهر بربوسا وصار له في أشبيلية بيت وزوجة، ولم يعد في نظر السلطات الإسبانية لاجئاً غريباً. وفي وسعه الآن أن يعتمد على صداقته لبربوسا وعلى ثروة زوجته، ليجتاز بلا خوف عتبة بيت الهند!

ونحن نجهل تفاصيل ما حدث بينه وبين القائمين بأمر هذه المؤسسة. والذي نعلمه أن اقتراحه لم يرق لهم وأن الأخصائيين الفنيين لم يوافقوا على مشروعه، فاضطر ماجلان أن ينفذه ـ كما تنفذ الأعمال الخارقة في التاريخ ـ لا بمساعدة السلطات المختصة، بل بدونها وبالرغم منها!

* * *

لم يقدم بيت الهند أية مساعدة لماجلان. وهكذا أغلق في وجهه أول الأبواب المؤدية إلى قاعة الاستقبال في قصر الملك. ولا شك في أن ذلك اليوم كان يوماً قاتماً في نظر ماجلان، لأنه لم يتمكن من إقناع الأخصائيين الثلاثة المشرفين على اللجنة صاحبة الشأن بأن يولوا مشروعه اهتمامهم.

ولكن ماجلان فوجئ برسول يقول له إن أحد أعضاء اللجنة الثلاثة قد أصغى باهتمام إلى بياناته، وأنه يرغب في المزيد. كان ذلك العضو: جوان أراندا. ولم يكن الدافع إلى اهتمامه بمشروع ماجلان غير الطمع في الربح! وإن كان قد رفض المشروع بوصفه عضواً في اللجنة، فإن هذا لا يمنعه من الاهتمام به بصفته الشخصية، وتمويله والإفادة منه كوسيط. والواقع أن هذا التصرف لم يكن سليماً، وسيقاضيه بيت الهند في المستقبل لهذا السبب.

ولكن ماذا يهم ماجلان من تصرف الرجل مادام الشيء الوحيد الذي يشغل باله هو نجاح مشروعه، وهو من أجل ذلك يسلك كل السبل.

إن أراندا يوافق على اقتراحاته كلها، بعد أن يستعلم عن الرجل في البرتغال، ويتلقى الرد بأن ماجلان ربان مجرب، وأن فاليرو يعد من الجغرافيين الأفذاذ.

وتسلم المدير التجاري لبيت الهند، جوان دي اراندا، مشروع ماجلان وتبناه، وانضم إلى الربان وصديقه فاليرو فأصبح ثالث الشركاء. ثم بدأ العمل بلا تردد... فكتب خطاباً إلى وزير البلاط بسط فيه أهمية المشروع وأوصاه خيراً بماجلان، قائلاً إنه خليق أن يقدم للملك خدمات جليلة. وكتب إلى المستشارين طالباً منهم أن يمهدوا للربان مقابلة الملك. ولم يعرض على ماجلان مصاحبته إلى «بلد الوليد» فحسب، بل أبدى استعداده لدفع النفقات أيضاً.

وهكذا تحولت الرياح في ليلة واحدة... ورأى ماجلان آماله تتحقق إلى أبعد ما كان ينتظر. وحصل في إسبانيا، بعد بضعة شهور، على ما لم يحصل عليه خلال عشر سنين في وطنه «البرتغال».

وبعد أن أصبحت أبواب القصر الملكي مفتوحة أمامه، كتب إلى فاليرو أن يتذرع بالأمل ويحضر إلى أشبيلية بلا إبطاء لأن كل شيء على خير ما يرام.

وقد ثار فاليرو حين علم أن اراندا لم يقدم على ذكر الاتفاق إلا طمعاً في الربح. واتهم صديقه بأنه خانه وباع سره للغير. ورفض أن يذهب إلى بلد الوليد. فأوشك المشروع يتعطل. ولكن تبادل وجهات النظر أسفر عن تفاهم نهائي فاستقر الرأي على أن يحصل أراندا على جزء من ثمانية من الأرباح. واعتزم أراندا أن يعرض المشروع على مجلس التاج.

واتضح لأعضاء المجلس أن ماجلان ليس من أولئك المغامرين الخياليين الذين يسعون وراء الأوهام، وانه يعرف ما يقول ويثق به. فقد بسط وجهة نظره بدقة ووضوح، وأبرز ما لديه من وثائق ليثبت للمجلس أن الطريق إلى جزر التوابل من الغرب أقصر من الطريق إليها من الشرق. وأن هناك ممراً مائياً يصل بين المحيطين، فإذا سارت السفن الإسبانية في الطريق الجديدة فإنها ستسبق السفن البرتغالية، وتستولي إسبانيا على مصدر تلك الكنوز البعيدة، ويصبح ملك إسبانيا أغنى ملوك الأرض قاطبة.

وقال ماجلان إنه لا داعي إلى تخوف إسبانيا من أن تكون جزر ملوك المنتجة للتوابل واقعة في القسم المخصص للبرتغال في مشروع تقسيم العالم. فإن ماجلان يعلم يقيناً أن هذه الجزر واقعة في المنطقة الإسبانية.

وتقدم فاليرو بعد ماجلان، فشرح الخطة المرسومة وبسط الفكرة الجديدة مستعيناً بالخرائط التي وضعها. وانطلق يثبت من ناحيته أن الجزر يجب أن تكون من نصيب إسبانيا.

وحدثت المعجزة... وأقر المجلس فكرة الصديقين، وطلب منهما أن يضعا تقريراً عنها.

وربح ماجلان القضية... وأحس بأن الحظ قد بدأ يحالفه، إذ وجد زوجة تحبه، وأصدقاء يساعدونه، وأنصاراً يؤيدون مشروعاته، وملكاً يوليه ثقته... كل أولئك في إسبانيا، لا في وطنه البرتغال.

وذات يوم هبط أشبيلية الثري الفلامندي كريستوفر دي هارو، صاحب الأعمال الواسعة، الذي أمد بالأموال قبل اليوم أكثر من رحلة بحرية. وقد كان هذا الرجل

يقطن لشبونة، ولكنه غادرها لأن الملك مانويلو أغضبه كما أغضب غيره. ولهذا، فإن كل ما يسيء إلى الملك البرتغالي يسر دي هارو. وهو يعرف ماجلان ويثق به. فإذا امتنعت السلطات الإسبانية عن تمويل رحلته، سارع هو إلى إمدادها بالأموال مشتركاً مع بعض زملائه من أصحاب الأعمال.

وكان اقتراح دي هارو خليقاً أن يغير الأوضاع، فإن ماجلان لم يعد، بالنسبة إلى بيت الهند، الرجل الذي يلتمس المساعدة، بل لقد غدا صاحب فكرة ورأس مال في آن معاً. وكل ما يريده الآن من بيت الهند ومن الملك، أن يسمح له برفع العلم الإسباني على سفنه، وهو يتعهد، مقابل هذا الشرف، بأن يدفع للتاج الإسباني مقدار الخمس من أرباح الرحلة كلها.

لكن مجلس التاج رفض هذا العرض، لأن رجلاً مثل كريستوفر دي هارو لا يخاطر بأمواله في سبيل رحلة إلا إذا وثق من نتائجها الرابحة، فلماذا لا تنفق خزانة الدولة الإسبانية على هذه الرحلة بدلاً من كريستوفر دي هارو لكي تتضاعف الأرباح التي يجنيها التاج منها؟!

وعلى هذا، وافق المجلس على جميع الشروط التي اشترطها ماجلان وصديقه فاليرو.

وفي ٢٢ مارس سنة ١٥١٨، وقع الملك شارلكان على العقد المبرم بين التاج من ناحية، وماجلان وروي فاليرو من ناحية أخرى.

* * *

وفيما يلي بعض فقرات من تلك الوثيقة التي وقعها الملك، مانحاً ماجلان وفاليرو حق احتكار الملاحة دون سواهما في البحار المجهولة في الغرب:

«انه لا يحق لأحد أن يلحق بكما ضرراً، وأنتما في تلك البحار، تحملان عبء هذه الرحلة... هذه إرادتي. وإنني أعد بألا يسمح لأحد في السنين العشر القادمة بارتياد الطريق ذاتها لاكتشاف الأماكن التي تبحثان عنها. وإذا أراد أحد الإقدام على هذا العمل وطلب منا الإذن بذلك، فإننا سنطلعكما على رغبته قبل منحه الإذن المطلوب، لكي تتمكنا إن شئتما من القيام بالرحلة ذاتها».

وتعطي البنود التالية ماجلان وفاليرو حق الاستيلاء على جزء من عشرين من دخل البلدان التي يكتشفانها وجزيرتين إذا زاد عدد الجزر المكتشفة على ست جزر. وتسبغ على كل من ماجلان وفاليرو لقب «حاكم» في جميع الأراضي التي يكتشفانها.

وتعهد الملك بأن يجهز خمس سفن برجالها ومؤونتها وأسلحتها عامين كاملين. وتختم الوثيقة بهذه العبارات:

«إنني أتعهد بشرفي بأن أنفذ ما تقدم، وقد أصدرت أمرين بكتابة هذا العقد الذي أوقع عليه باسمي».

وليس هذا كل شيء... فقد جاء في الوثيقة أنه يجب اطلاع جميع موظفي الدولة كباراً وصغاراً، على فحوى هذا العقد، لكي يقدموا لماجلان وفاليرو كل مساعدة يحتاجان إليها. وهكذا أصبحت الدولة الإسبانية بأسرها رهن إشارة المغامرين البرتغاليين المجهولين بالأمس!

ولم يكن ماجلان يأمل كل هذا، ومع ذلك فقد حدث فيما بعد ما هو أدعى إلى الدهشة... فإن شارلكان، الذي عرف من قبل بتردده، قد أصبح الآن من أشد أنصار الرحلة المزمعة.

إرادة تقتحم الصعاب

مارس ١٥١٨ - أغسطس ١٥١٩

وجد الجندي البسيط، بالأمس، نفسه يواجه مهمة خطيرة. فعليه الآن أن يعد للسفر خمس سفن يجتاز بها مناطق غير مطروقة. وليس في وسع أحد أن يسدي إليه النصائح، لأن الجميع يجهلون تلك المناطق التي ينوي ارتيادها للمرة الأولى. ولا يستطيع أحد أن يحدد له الزمن الذي سوف تستغرقه رحلته، أو يذكر له شيئاً عن المناخ والسكان في البلدان التي سوف يبلغها، فيجب إذن أن تعد السفن لمواجهة جميع الطوارئ والاحتمالات: الطقس البارد والطقس الحار، البحر العاصف والبحر الهادئ، السفر فوق الأمواج سنة أو سنتين أو ثلاثاً، الحرب والتجارة السلمية... إن ماجلان يجب أن يدخل في حسابه كل شيء... ويواجه جميع الصعاب المفاجئة ويتغلب عليها.

وهنا فقط، أمام عظمة ذلك العمل، تجلت مزايا الحزم التي يتحلى بها هذا الرجل، والتي كثيراً ما غمرتها الحوادث من قبل، فإنه لم يترك لمعاونيه القيام بجميع الأعمال التمهيدية قبل الرحيل، كما فعل كولومبو، وإنما سلك النهج الذي سلكه نابليون في حروبه بعد ذلك بقرون، فتولى بنفسه الإشراف على جميع التفاصيل، وجعل نصب عينيه كل كبيرة وصغيرة لثلاثة أعوام مقبلة. ويا لها من مهمة شاقة، على الرجل الذي آلى أن يتغلب منفرداً على جميع الصعاب التي تقف في سبيل مشروعه الضخم!

نعم، إن شارلكان قد تعهد بتقديم كل ما يلزم للرحلة، وأمر موظفي الدولة بأن يساعدوا في إعدادها. ولكن ما أوسع الشقة بين أمر يصدره إمبراطور، وبين تنفيذ الأمر. ولهذا، فإن ماجلان لم يترك لأحد مهمة إعداد مشروعه. فهو يراقب بنفسه جميع التدابير ويناقش بيت الهند والموظفين والتجار والموردين والعمال، ويشعر بالمسؤولية الملقاة على عاتقه نحو الرجال الذي وضعوا مصيرهم بين يديه. وأنه يفحص البضائع

وقوائم الحساب والحبال والأسلحة، ويعرف السفن الخمس معرفة دقيقة، وهو في الوقت نفسه يقاوم الدسائس التي يحوكها له خصومه خفية لعرقلة رحلته الرائعة. وقد ارتفع نبوغه إلى الأوج، فتغلب على كل شيء.

* * *

وقد جاء أول هجوم عليه من البرتغال. فقد علم الملك مانويلو بالاتفاق الذي تم في إسبانيا فوقع منه موقعاً أليماً، لأن احتكار تجارة التوابل يدر عليه مئتي ألف دوكة في السنة، وهو دخل هائل. ومع ذلك فإن سفنه لم تمتلك بعد جزر التوابل بل اتصلت بها فقط. وقد أصبح مجرد التفكير في أن الإسبانيين قد يبلغون تلك الجزر من الغرب كابوساً مزعجاً للملك البرتغالي، وخطراً داهماً يهدد خزانة بلاده. وسوف يحاول مانويلو بجميع الطرق منع تلك الرحلة الجريئة، ولهذا عهد إلى سفيره في إسبانيا، ألفارو دي كوستا، في بذل كل طاقته للحيلولة دونها.

وواجه ألفارو دي كوستا الصعوبة بلا تردد، وهاجمها من ناحيتين. فقد ذهب أولاً إلى ماجلان وحاول أن يثنيه عن عزمه بالوعد والوعيد. ألا يشعر الرجل المغامر بالخطيئة التي يقترفها نحو الله ونحو ملكه، إذ يضع نفسه تحت تصرف ملك أجنبي؟ وهل يجهل أن مانويلو عازم على الإقتران بالأميرة ليونورا، أخت كارلوس الأول (شارلكان) وأن رحلة ماجلان قد تحول دون هذا الزواج.

وفي الوقت نفسه، وعده السفير بمكافآت سخية لو عاد إلى رشده، وفسخ العقد مع «بيت الهند»، ورجع إلى لشبونة بوصفه من رعايا جلالة ملك البرتغال.

غير أن ماجلان يعلم مبلغ ما يكنه له مليكه من البغض، ولا يشك في أن جزاءه بعد عودته إلى لشبونة سيكون طعنة خنجر تقضي عليه. ولهذا، عبر للسفير عن أسفه لما حدث، وقال إن العدول عن مشروعه قد فات أوانه لأنه قطع عهداً لملك إسبانيا، ولابد من الوفاء بالعهد.

إن ماجلان إذن لا يمكن ثنيه عن عزمه، فلم يبق أمام دي كوستا غير مواجهة ملك إسبانيا. فطلب موعداً للمثول أمامه، فلما تمت المقابلة كتب إلى مانويلو يصف ما دار فيها قائلاً: «إن الله وحده يعلم ما عانيته في مسألة ماجلان، فقد تحدثت إلى الملك

بصراحة في هذه المسألة. ولفت نظره إلى أنه لا يليق بملك أن يستخدم أحداً من رعايا ملك آخر ضد إرادته. وقلت له إن الوقت غير مناسب لإغضاب جلالتكم، وأن بين رعاياه كثيرين ممن يمكن استخدامهم في رحلات جديدة دون الالتجاء إلى الذين أثاروا نقمة جلالتكم، وطلبت منه أن يوافق على أحد أمرين: إما أن يعيد هذين الرجلين إلى بلادهما، أو يؤجل تنفيذ مشروعهما سنة أخرى».

وادعى السفير ألفارو أن ماجلان وفاليرو راغبان في العودة ولكن البلاط الإسباني يحول دون ذلك. وهذا اختلاق لا أصل له.

لم يقع شارلكان في الفخ، لعلمه أن تأجيل تنفيذ المشروع سنة كاملة يفسح للبرتغال الوقت لإرسال عمارة بحرية تحتل جزر التوابل وتمتلكها قبل أن تصل إليها إسبانيا. فرفض شارلكان الإصغاء إلى احتجاج السفير، وأحاله على مستشاريه، وأدى التسويف إلى حفظ الاحتجاج، بعد أن أكد الملك الإسباني أنه لا يرمي بأي حال إلى الحاق ضرر بصديقه الملك مانويلو. وقد كان لهذا الاحتجاج البرتغالي نتيجة معكوسة فقد عاد بالفائدة على ماجلان نفسه. ومنذ اللحظة التي اهتم فيها كارلوس بمشروع ماجلان، أصبح لهذا الضابط الصغير المجهول رجلاً ذا شأن في نظر مانويلو. وبقدر ما كانت إسبانيا تعجل سفر العمارة إلى هدفها المجهول، كان البرتغال يبذل الجهود لإعاقتها!

* * *

وتولى سباستيان ألفاريز، قنصل البرتغال في أشبيلية الحاق الضرر سراً بالسفن المتأهبة للرحيل. فقد اتصل بالضباط الإسبانيين الملحقين بالحملة وحرضهم على الامتناع عن السفر تحت إمرة مغامر برتغالي. ونجح الرجل في إثارة الحسد في نفوس أولئك الضباط، فجعلوا يتساءلون ويتشاورون فيما يجب أن يصنعوه. ولم يكتف ألفاريز بهذا بل سعى لإثارة فتنة بين البحارة، تفقد ماجلان قيادة الحملة إن لم تفقده حياته. وكان ذلك الجاسوس أستاذاً في إثارة الفتن! فقد ذهب يوماً متنكراً إلى المرفأ حيث كانت السفن الخمس راسية، وأشار إلى الراية الخافقة على سفينة القيادة، وخاطب المارة قائلاً: «أليس من العار أن تخفق هذه الراية البرتغالية على سفينة إسبانية؟» وهاج الجمهور

لهذه الكلمات المثيرة، وما هي إلا دقائق حتى وثب الناس على ظهر السفينة، لتمزيق العلم الغريب.

وكان ماجلان يشرف كعادته على سير الأعمال، فأسرع إلى السفينة وأفهم الجمهور الثائر أن الراية التي يرونها ليست راية البرتغال بل رايته الخاصة، وأنه يرفعها على سفينة القيادة بحكم القوانين المرعية.

وإذا كان سهلاً تأليب الجماهير، فإنه من الصعب إعادتها إلى رشدها. وهذا ما حدث لماجلان، فقد ظل الناس يلحون في إنزال الراية الغريبة. وانضم إليهم رجال الشرطة. فلم تمض دقائق حتى كان البحارة قد اشتبكوا مع الجمهور في عراك عنيف، فسلت السيوف من أغمادها. وصاح ماجلان مهدداً برفع الأمر إلى الملك، لأن السفينة من سفنه، والاعتداء عليها اعتداء على أموال الملك. وتمكن الرجل بدهائه من تهدئة الخواطر. ورفع الأمر فعلاً إلى شارلكان، فانتصر الملك لماجلان وأمر بمعاقبة المعتدين وتأنيب رجال الشرطة. وهكذا فشلت الدسيسة التي حاك ألفاريز خيوطها...

نعم، فشلت الدسيسة. ولكن العقبات كانت تتوالى وكان كل يوم يحمل معه حادثاً جديداً. ووقف موظفو بيت الهند موقفاً سلبياً عرقل أعمال ماجلان حتى اضطر إلى الاستعانة بالملك مباشرة، فصدر مرسوم ملكي موقع عليه بيد الملك يدعو الموظفين إلى العمل بنشاط، وعندئذ فقط خرجوا عن جمودهم.

وفجأة، ادعى صراف بيت الهند أن الخزانة خاوية وأوشكت الرحلة أن تتعطل بسبب عدم توافر المال، ولكن إرادة ماجلان الحديدية تتغلب على كل الصعاب. فقد حمل البلاط على دعوة الماليين إلى الاهتمام بالمشروع. وأنشأ كريستوفر دي هارو شركة جمعت ما يلزم من المال لتسديد بقية النفقات. فحلت المشكلة المادية على أحسن وجه.

وحان موعد اختيار البحارة والعمال للانضمام إلى الحملة، فاتضح أن هذا من الصعوبة بمكان. فبالرغم من الدعوة العامة التي أذيعت في المدينة وفي الموانئ الأخرى، لم يتمكن ماجلان من جمع مئتين وخمسين رجلاً كان في حاجة إليهم، لأن خصوم ماجلان نشروا بين الناس إشاعات مقلقة عن رحلته المرتقبة حتى اعتقدوا أن السفر معه مخاطرة لا تؤمن عواقبها، فتردد البحارة في الالتحاق بالحملة.

وأخيراً، وجد الرجل العدد الكافي من المرتزقة من كل جنس ولون، فكان بينهم البرتغالي والإسباني والزنجي والألماني والفرنسي والإنجليزي والقبرصي وغيرهم. وكان كل رجل من ذلك الخليط العجيب مستعداً لبيع نفسه للشيطان مقابل أجر زهيد، وأمل في الحصول على أرباح باهظة في المستقبل.

ولم تكن الصعوبات قد ذللت كلها. فقد اعترض بيت الهند على وجود عدد كبير من البرتغاليين في الحملة وقال إنه لن يدفع أجراً لأولئك الأجانب. ولكن ماجلان عالج المشكلة بالحزم كعادته. فكتب إلى الملك، وكان رد الملك في هذه المرة أنه لا يريد الإساءة إلى مانويلو باستخدام عدد كبير من البرتغاليين، وقرر ألا يزيد عددهم على خمسة. وكان شارلكان في الواقع يخشى أن يؤلف ماجلان مع أولئك البرتغاليين كتلة واحدة يستغلها لحسابه.

وهكذا كان ماجلان يواجه كل يوم عقبة يذللها. وأصبحت السفن متأهبة للرحيل. غير أن ألفاريز لم يفقد كل أمل في النيل من ماجلان، فعمد إلى سهم مسموم كان آخر السهام في كنانته!

حاول الجاسوس البرتغالي أن يدخل في روع ماجلان أن الإسبانيين سوف يغدرون به في الطريق، وينتزعون منه القيادة بعد أن يدلهم على المنفذ الذي يعرفه، فهو إذن يلقي بيديه إلى التهلكة، وخير له أن يتدبر الأمر ويقلع عن عزمه قبل فوات الأوان...

وكان لهذا السهم المسموم أثره في نفس ماجلان لأول وهلة. فقد فكر في الأمر حقاً، وخيل إليه أن شيئاً من الغموض يكتنف موقف البلاط وبيت الهند والضباط الإسبانيين بالنسبة إليه، وأن معاملتهم له يعروها بعض التحفظ. فهل يكون ألفاريز الدساس صادقاً؟

أدرك ماجلان في تلك اللحظة أنه قد يصبح وحيداً ضد الجميع، لا يمكنه الاعتماد إلا على نفسه. ولكنه لم يترك لليأس منفذاً إلى صدره. وتجلت عظمة الرجل مرة أخرى عندما قرر في تلك اللحظة الرهيبة، لحظة الشك، أن يواجه مصيره وحده إذا لزم الأمر!

لابد من الانطلاق إلى الأمام. والموت وحده القادر أن يثني ماجلان عن مشروعه. وهذا ما أدركه ألفاريز أيضاً، فكتب إلى مانويلو يقول: «لعل الله يهلكهم جميعاً في

مجاهل البحار، فيهدأ قلق جلالتكم، ويبقيكم الله أسعد ملوك الأرض».

* * *

لم ييأس ماجلان، ولكن عقارب الشك دبت في قلبه، فهو منذ هذه اللحظة يرى نفسه ـ أو يخيل إليه ـ أنه محاصر بالأعداء على ظهر سفينته. غير أن هذا الشعور لم ينل من إرادته الحديدية بل زادها صلابة وشحذ شجاعته، فالربان الذي يرى العاصفة مقبلة يعلم أن خير وسيلة لإنقاذ السفينة وركابها هي أن يقبض بنفسه على دفتها...

وإذا كان لابد من أن يصبح ماجلان وحيداً، فهو يريد أن ينطبق عليه هذا الوصف من جميع الوجوه. فقيادة الحملة يجب أن تظل في يده وحده، لا يشاركه فيها أحد. وأخذ يفكر في التخلص من شريكه فاليرو الذي أصبح عبئاً ثقيلاً، لتدخله في كل شيء، وميله الدائم إلى المشاكسة والعراك. ففي هذه الرحلة سيكون فاليرو مصدر إزعاج ومضايقة. وماجلان في حاجة إلى كل حريته ليواجه ما قد ينشب على ظهر السفن من فتن وخلافات.

ولا نعلم ـ على التحقيق ـ كيف تصرف ماجلان للتخلص من شريكه، ولعل فاليرو نفسه استطلع الغيب، فتبين أنه لن يعود حياً من تلك الرحل، فعدل من تلقاء نفسه عن مزاملة صديقه، ورفع استقالته من وظيفته إلى الملك، فأصدر مرسوماً بقبولها، واعداً فاليرو بأن يجهز في المستقبل حملة يسند إليه قيادتها!

ووضع فاليرو بين يدي ماجلان خرائطه ورسومه ووثائقه، وأصبحت الحملة منذ تلك اللحظة عملاً خاصاً بماجلان دون سواه، فكل شيء تابع له... وهو مسؤول عن كل شيء. وعندئذ فقط شعر بالفرح يغمر نفسه، لأنه استقل بتحقيق مشروعه العظيم دون شريك ينازعه شرف النصر المرتقب!

الرحيل
٢٠ سبتمبر ١٥١٩

في ١٠ أغسطس ١٥١٩، أي بعد سنة وخمسة أشهر منذ وقع شارلكان عقد الاتفاق، أقلعت السفن الخمس من مرفأ أشبيلية، هابطة نحو سان لوكار حيث يصب نهر الوادي الكبير في البحر. فهناك يجب أن تفتش القافلة للمرة الأخيرة. ولكن الرحلة قد بدأت فعلاً. وفي كنيسة سانتا ماريا، ركع ماجلان على ركبتيه وأقسم يمين الولاء للملك، وحوله رفاقه جميعاً وجمهور من المعجبين الخاشعين، وتسلم من مندوب البلاط الراية الملكية. ولاشك أنه تذكر في تلك اللحظة، أنه قبيل رحلته الأولى إلى الهند ركع أيضاً في الكنيسة وأقسم يمين الولاء. ولكن ذلك كان أمام راية أخرى، الراية البرتغالية، وملك آخر، مانويلو ملك البرتغال. وكما كان الشاب ماجلان ينظر يومئذ بعين الاحترام إلى أمير البحر «الميدا»، وهو يرفع رايته الحريرية خافقة فوق رؤوس الحاضرين الراكعين، فإن مئتين وخمسين رجلاً، هم رفاق ماجلان، يرمقون اليوم قائدهم في إجلال وإكبار!

وفي ميناء سان لوكار، أمام قصر مدينة سروينا، فحص ماجلان سفنه للمرة الأخيرة، فطاف فيها جميعاً قبل أن تمخر عباب المحيط، كأنه فنان يفحص آلته الموسيقية ويجربها قبل العزف عليها.

إنه يعرف سفنه واحدة واحدة معرفة دقيقة. ولقد فزع يوم وقع نظره على تلك السفن البالية، ولكن العمل الذي تم منذ ذلك اليوم جدير بالإعجاب. فإن تلك السفن القديمة قد تم تجديدها من السطح إلى القاع. وماجلان نفسه هو الذي أشرف على تركيب كل قطعة من الخشب، وفحص بدقة كل حبل من الحبال، وكل مسمار وكل لولب. والقلوع التي رسمت عليها صورة القديس جاك، حامي إسبانيا، مصنوعة من

قماش متين، وأماكن الرقابة أعيدت إلى حالتها الأولى، وكل شيء في محله يلفت النظر بنظافته.

لا أحد يجرؤ الآن على الاستهزاء بهذه السفن الجديدة. نعم إنها لا تصلح للسباق. ولو ظهرت فيه لأثار منظرها الضحك. فهي مستديرة الشكل، ثقيلة، ضخمة، ولكنها واسعة عميقة، يمكن تخزين المؤن فيها، والاعتماد عليها عندما تثور العواصف. فهي قادرة، على ما يظن، أن تقاوم أشد الحالات سوءاً من هذه الناحية.

أطلق على أكبر السفن الخمس اسم «سان انطونيو» وحمولتها مائة وعشرون طناً. غير أن ماجلان ـ لأسباب نجهلها ـ عهد بقيادة هذه السفينة إلى جوان دي كرتاجينا، ووقع اختياره على السفينة «ترينيداد» لرفع علم القيادة عليها، وحمولتها تقل عن حمولة السفينة الكبرى عشرة أطنان. ثم تجيء السفينة «كونسبسيون» وحمولتها تسعون طناً، بقيادة جسبار كويسادا، والسفينة «فكتوريا» وحمولتها خمسة وثمانون طناً، بقيادة لويس دي مندسا. وستشرف هذه السفينة الاسم الذي تحمله، ومعناه «النصر» وأخيراً السفينة «سنتياغو» وحمولتها خمسة وسبعون طناً، بقيادة جوان سراو.

أما السفن الصغيرة، فإنها نظراً لعمقها المحدود وخفة حركاتها، ستستخدم في أعمال الكشف وقياس الأعماق. وقد كان لتفاوت السفن في الحمولة والشكل فوائد جمة. وتعمد ماجلان اختيارها من أنواع مختلفة. ولكن لابد له من الاستعانة بنبوغه في شؤون الملاحة، ليتمكن من قيادة تلك السفن الخمس المتفاوتة.

***

كان ماجلان يتنقل من سفينة إلى أخرى، موجهاً انتباهه على الأخص إلى شحنة المؤن. فكم صعد السلالم ثم هبط، وكم قام بجرد محتويات السفن بنفسه. وما زال في وسعنا حتى يومنا هذا، بفضل المحفوظات العديدة، أن ندرك كيف بلغت الدقة في إعداد التفاصيل لرحلة من أعجب رحلات التاريخ. فإن الوثائق المحفوظة تنبئنا بثمن كل مطرقة، وكل منشار، وكل رزمة من الورق. وتلك الأرقام المتراصة في أعمدة متتابعة، والتي دونتها يد هادئة، بجميع ما يتعلق بها من تفاصيل، تدلنا بأبلغ بيان، على مدى عبقرية ذلك الرجل وصبره الجميل.

إن ماجلان بحار مجرب. وهو يدرك أهمية الاستعداد لرحلة طويلة في أصقاع مجهولة. ويعلم أن أصغر شيء يتناوله النسيان عند الرحيل، بسبب الإهمال وعدم الاكتراث، لا يمكن أن يعوض. فإن أصغر رزمة من القطن، أو أقل قطعة من الرصاص، أو قدراً بسيطاً من الزيت، قد يكون له في الغد، في تلك الأصقاع المجهولة، قيمة تفوق قيمة الذهب والدم! وقد يؤدي نسيان قطعة صغيرة إلى شل حركة سفينة كاملة وجعلها غير صالحة للملاحة. وخطأ واحد في الحساب قد يؤدي إلى فشل الرحلة كلها.

ولهذا كان هدف التفتيش الأخير الوثوق من أن مواد التموين على ما يرام. فما هي حاجات خمس سفن، ومئتين وخمسين رجلاً، في رحلة لم يحدد هدفها أو تعرف مدتها؟ إن التقدير عسير، ولكن ماجلان لا يطلع رجاله على الحقيقة فهو وحده يعلم أنه قد تمر شهور بل سنوات، قبل أن تتمكن القافلة من تجديد تموينها بمقادير كافية من المواد الغذائية. إذن، فخير له أن يحمل منها قدراً يفيض عن الحاجة من أن يحمل قدراً لا يفي بها.

إن أساس الغذاء في البحر الخبز المجفف. وقد وضع ماجلان منه في السفن ٢١٣٨٠ «ليبرة»، بلغ ثمنها ٣٧٢٥١٠ مرافيدي[1] وقدر ماجلان أن هذه الكمية تكفي سنتين. وإذا نظرنا في بقية الأرقام الخاصة بمواد التموين، فإنه يخيل إلينا أننا أمام باخرة من عابرات المحيط في عصرنا الحاضر، حمولتها عشرون ألف طن، لا أمام خمس سفن تتراوح حمولتها بين خمسمائة طن وستمائة، إذ أن سعة الطن في ذلك الوقت كانت تزيد على سعته الآن بنحو العشر.

وتكدست الأشياء في بطون السفن الخمس... فبجانب أكياس الدقيق، واللوبيا، والعدس، والأرز، والحبوب الأخرى، وضعت ٥٧٠٠ ليبرة من لحم الخنزير المملح، و ٢٠٠ برميل من السردين، و٩٨٤ قطعة من الجبن، و ٤٥٠ رزمة من الثوم والبصل، ويضاف إلى ذلك كله أطعمة أخرى لذيذة منها ١٥١٢ ليبرة من العسل، و ٣٢٠٠ ليبرة من الزبيب واللوز، وكميات كبيرة من السكر والخل والخردل، وفي آخر لحظة، نقلت إلى

(١) الليبرة توازي خمسمائة جرام أي نصف كيلو . والمرافيدي عملة إسبانية اسمها مشتق من كلمة «مرابطي» العربية لأن الولاة المرابطين العرب هم الذين ادخلوها في إسبانيا . والمرابطي يعادل نحو سنتيم ونصف من قيمة الفرنك الأصلية .

ظهر السفن سبع بقرات حية ـ ولكن هذه البقرات السمان لن تعيش طويلا!...

وهكذا، ضمن رجال الحملة الحصول في الأيام الأولى من رحلتهم على اللبن ثم على اللحم الطازج، غير أن النبيذ في نظر رجال السفن أهم من اللبن، وقد أراد ماجلان أن يحتفظ بالروح المعنوية بين رجاله، فابتاع من أجود أنواع الخمر من مدينة شرش ما لا يقل عن ٤١٧ قربة و٢٥٣ برميلاً، وهيأ لكل رجل كأسين من النبيذ لعامين كاملين!

حمل ماجلان قائمة هذه الأشياء كلها بيده، وطاف في سفنه يراجع ويفتش. فهل فكر وقتئذ في المتاعب التي تحملها لتزويد سفنه بتلك الأشياء كلها، وعدها، ودفع ثمنها؟

إن كل شيء في مكانه الآن، وفي السفن ما يحتاج إليه مائتان وخمسون رجلاً خلال هذه الرحلة. وقد صنع ماجلان من أجلهم كل ما يجب أن يصنعه. غير أن السفن أيضاً تشبه الكائنات الحية. وهي تفقد بعض قدرتها على الملاحة، بعد كل رحلة في البحار. فالرياح تمزق القلوع، وتلوي الحبال وتقطعها. ومياه البحر تأكل الخشب وتفسد الحديد. والشمس تحرق الدهان. والظلام يستهلك قدراً من الزيت والشمع. ولهذا، فلابد من قطع التغيير: المراسي، والحبال، والحديد، والرصاص، وجذوع الأشجار، والقماش، حتى يسرع البحارة عند الضرورة إلى إصلاح كل عطل وضرر. ولابد أيضاً من كميات من القطران والشمع والقطن لسد كل ثغرة تحدثها الزوابع. ولابد من أدوات النجارة كاملة. ومن الشباك و«الصنانير» لاصطياد السمك في الطريق، لأنه سيكون، مع الخبز المجفف، أساس الغذاء في الرحلة.

ونقلت إلى السفن أربعمائة ليبرة من الشمع للإضاءة، و٨٩ مصباحاً. كما نقلت جميع الأدوات الخاصة بالملاحة والفلك وتقدير المسافات وغيرها من شؤون الربابنة في البحار. وقدر ماجلان ما قد يقع من الحوادث الأليمة، فوضع في السفن كميات من الأدوية والعقاقير والأدوات الجراحية. كما وضع سلاسل لتقييد العصاة المتمردين من البحارة. ولم ينس في النهاية الآلات الموسيقية فجلب عدداً منها لتسلية رجال الحملة في الطريق!

وليس الذي ذكرناه إلا جزءاً مما تحمله سفن ماجلان، وقليلاً من آلاف الأشياء التي يحتاج إليها الأسطول ورجاله في هذه الرحلة. فالسفن بمن عليها من رجال لا ترسل إلى

بعيد للنزهة، بعد أن كلفت نحو ثمانية ملايين مرافيدي. ولن تعود هذه السفن إلى قواعدها حاملة معها معلومات جغرافية فقط، بل يجب أن تعود بربح مادي على الذين ساهموا في نفقات تجهيزها. ولهذا، فلابد من أن تأخذ معها طائفة من السلع تتيسر المقايضة بها على البضائع التي عقدت الآمال على جلبها من الأقطار النائية. وماجلان يعرف - بعد رحلاته السابقة - ما يعجب سكان الجزر الفطريين، ويعرف على الخصوص أن هناك شيئين لهما في كل مكان وقع شديد: المرايا التي يرى فيها سكان الجزر صورهم للمرة الأولى في حياتهم، والأجراس الصغيرة التي يلهون بها كالأطفال. وعلى هذا الاعتبار، وضع ماجلان في سفنه عشرين ألفاً من تلك الأجراس، وتسعمائة مرآة صغيرة، وعشر مرايا كبيرة - ومعظمها سوف يتحطم في الطريق - وأربعمائة سكين من صنع ألمانيا، وستمائة مقص، وعدداً كبيراً من المناديل الملونة، والقلانس الحمراء، والأساور النحاسية، والأمشاط، والحلى الزائفة، وقطع الزجاج.

وأخذ معه أيضاً ثياباً تركية ليرتديها زعماء القبائل في الحفلات الرسمية، وأقمشة من القطيفة والصوف ذات الألوان المنوعة، وهي كلها سلع لا تزيد قيمتها في إسبانيا على قيمة التوابل في جزر ملوك، ولكنها تتفق مع الأغراض التجارية للرحلة، ولهذا طلب أصحاب هذه السلع الرخيصة أضعاف ثمنها من ماجلان.

وليس لتلك الأمشاط والقلانس، والمرايا والدمى، قيمة طبعاً إلا إذا أظهر سكان الجزر استعدادهم لإعطاء سلعهم مقابلها. ولهذا أعد ماجلان العدة لخوض القتال إذا لزم الأمر. فجهز ثمانية وخمسين مدفعاً، وسبع قاذفات طويلة، وثلاث قاذفات صغيرة ثقيلة، تبرز فوهاتها خلال نوافذ السفن، وقنابل مصنوعة من الحديد والحجارة تتراكم في قاعها، فضلاً عن أطنان عديدة من الرصاص، معدة لصب قذائف جديدة، وألف رمح، ومئتي حربة، ومئتي ترس، معدة للاستخدام في أول فرصة سانحة. وكان نصف رجال الحملة تقريباً مزودين بالدروع والخوذ وقد جيء من مدينة بلبوا بعدتين مدرعتين كاملتين للقائد العام، تغطيانه بالحديد من رأسه إلى قدميه، وتظهر أنه أمام سكان الجزر في مظهر كائن فوق البشر لا يمكن قهره.

إن ماجلان عازم على اجتناب القتال، ولكن حملته لا تقل في تجهيزها الحربي عن

حملة فرناندو كوريتز الذي فتح بها إمبراطورية في تلك السنة ذاتها، سنة ١٥١٩، على رأس قبضة من الرجال[١].

والآن يقف ماجلان ليلقي نظرة أخيرة على الرجال الذين يرافقونه في رحلته. ولم يكن اختيارهم من الأمور السهلة. فقد اقتضى انتزاعهم من أزقة الموانئ وحاناتها أسابيع عديدة. وقد جاؤوا إليه بأطمار بالية، قذرين، متململين، يلهجون برطانات عجيبة لا يتصورها العقل: تختلف من الإسبانية، إلى الإيطالية، إلى الفرنسية، إلى البرتغالية، إلى الألمانية. ولابد أن يمضي زمن قبل أن تصهر تلك الجنسيات المتباينة في بوتقة واحدة متينة أمينة منظمة. ولكن ماجلان سيعرف كيف يتحكم فيهم بعد بقائهم بضعة أسابيع. فقد عمل من قبل بحاراً بسيطاً ورئيس شعبة من البحارة. ولهذا، فهو يعرف جيداً ما يحتاج إليه رجال البحر، وما ينبغي أن يطلب منهم، وكيف يجب أن يعاملهم. فالرجال ليسوا مصدر مخاوفه، وإنما مصدرها أولئك الربابنة الإسبانيون الأربعة الذين ألحقوا بالحملة قواداً للسفن الأخرى. فإن التفكير فيهم يجعله يضغط أعصابه كما يفعل المصارع قبل المباراة. فهذا جوان دي كرتاجينا يحدجه بنظرات ملؤها البرود والكبرياء والاحتقار. وهو المراقب الذي يمثل الملك. وقد حل مكان فاليرو في قيادة السفينة «سان انطونيو».

نعم إن جوان دي كرتاجينا ملاح مجرب، واستقامته لا يرتاب أحد فيها، وليس له مطامع خاصة في الوقت الحاضر. ولكن أيستطيع هذا الرجل أن يكبح جماح أطماعه في المستقبل؟ إن ماجلان ينظر إلى جوان دي كرتاجينا، ويتذكر كلمات ألفاريز الجاسوس، الذي قال له إن بين رجال الحملة من زود مثله بتعليمات وسلطات خاصة لن يعرفها إلا بعد فوات الوقت.

ولويس دي مندوسا لا يبدو أقل عداء نحوه من جوان دي كرتاجينا. وهو قائد السفينة «فكتوريا» فقد سبق له أن رفض أوامره في أشبيلية، ولا يسعه أن يتخلص منه لأن الإمبراطور هو الذي اختاره صرافاً للحملة.

---

(١) فرناندو كوريتز مغامر إسباني فتح المكسيك في سنة ١٥١٩، واقترف من الفظائع ما يعجز القلم عن وصفه. وقد ولد في سنة ١٤٨٥ ومات في سنة ١٥٤٧.

نعم إن هؤلاء الضباط قد أقسموا له على الطاعة والإخلاص في كنيسة سانتا ماريا، في ظل العلم المنشور. ولكن هذا لا يعني شيئاً... فإنهم يضمرون له العداء في قلوبهم ويجب عليه أن يكون على حذر.

ومن حسن حظه أنه استطاع مخالفة المرسوم الإمبراطوري، وضم إلى رجال الحملة، بالرغم من اعتراضات بيت الهند، ثلاثين برتغالياً من مواطنيه، بينهم أهل وأصدقاء مخلصون. وفي مقدمتهم أخو زوجته، دوارتي بربوسا، وهو ملاح ماهر بالرغم من صغر سنه، وألفارو دي مكستا، وهو من أقربائه، واستافو غوميز، من أمهر قادة السفن، وجوان سراو، قريب فرانشسكو سراو، وقد سبق له القيام برحلات بعيدة مع بيزارو(١) وبدرو دارياس، وأخيراً جوان كرفالو، الذي أقام ردحاً من الزمن بالبرازيل، والذي يرافقه في هذه الرحلة ابنه المولود هناك من أم برازيلية. وهؤلاء جميعاً يعرفون البلدان التي تيمم شطرها الحملة ويجيدون لغات سكانها، ففي وسعهم أن يؤدوا خدمات جليلة.

وإذا وفق ماجلان في الذهاب من البرازيل إلى جزر ملوك التي تنتج التوابل، فإن عبده هنريك سيكون له خير ترجمان. وعلى هذا، فإن ماجلان على ثقة تامة من اثني عشر رجلاً من رجاله البالغين مئتين وخمسين تتألف منهم الحملة كلها. وليس هذا بالكثير... ولكن، ما دام الأمر كذلك، فعلى ماجلان أن يدبر أموره على هذا النحو.

* * *

عرض ماجلان رجاله واحداً واحداً... وحدق فيهم متسائلاً: من في هؤلاء يا ترى يفي بعهده في ساعات الشدة، ومن منهم يخونه؟ ولاشك في أن الإجهاد في التفكير قد قطب جبينه. غير أن أساريره تبسطت فجأة، ولاحت على شفتيه ابتسامة. ياللهِ! لقد أوشك أن ينسى الرجل الذي هرع إليه في اللحظة الأخيرة، بصورة غير منتظرة. فإن المصادفات وحدها هي التي دفعت «أنطونيو بيجافيتا» ذلك الشاب الإيطالي الهادئ المتواضع، سليل إحدى الأسر العريقة في فينيسيا، إلى تلك المجموعة المتباينة من

(١) فرانشسكو بيزارو مغامر إسباني، ولد في سنة ١٤٧٥، ومات في سنة ١٥٤١ وقد فتح بلاد بيرو بأمريكا الجنوبية سنة ١٥٢٢، واقترف بها فظائع مروعة.

البحارة والمغامرين. فقد جاء ذلك الشاب، وهو من جمعية فرسان رودس، إلى برشلونة مع مندوب البابا لدى بلاط شارلكان، فسمع برحلة غامضة يزمع بعضهم القيام بها عن طريق غير مألوفة إلى جهات لم يبلغها أحد بعد. ويغلب على الظن أنه قرأ كتاب أمريكو فسبوسي[1]، الذي نشر سنة ١٥٠٧، والذي ضمنه الرحالة ذكريات أسفاره. كما يغلب على الظن أيضاً أنه أعجب بكتاب «الرحلات» الذي وضعه مواطنه فارتيما. وهو كذلك يحن إلى رؤية الأشياء العظيمة في المحيطات. وقد أبدى رغبته هذه إلى شارلكان فأوصى به ماجلان. وهكذا، برز فجأة بين أولئك الملاحين، والباحثين عن الذهب، والمغامرين، ذلك الرجل ذو المثل العليا، الذي لا يندفع في المغامرة سعياً وراء الجاه أو طمعاً في المال، بل حباً في السفر، وإرضاء لرغبته في رؤية أشياء جديدة، ودراسة معالم الدنيا ومشاهدة بدائعها.

ذلك هو الرجل الذي سوف يصبح بالنسبة إلى ماجلان أهم رفاقه. إذ ما قيمة العمل الذي لا يتحدث عنه الرواة. إنه عمل لا يدخل التاريخ لأن الأجيال القادمة لن تتناقل أنباءه وأقاصيصه. وما نسميه نحن «التاريخ» ليس سلسلة الحوادث التي تتابعت في الزمان والمكان، بل هو ما ذكر فقط من الحوادث في مؤلفات العلماء والشعراء. ولو لم يوجد المؤرخ الذي يروي، والفنان الذي يخلد الذكرى، لطوى الظلام مشاهير الأبطال. ولاندثرت أعظم الأعمال روعة وما كان أحد ليعرف في هذه الآونة شيئاً يذكر عن ماجلان ورحلته، لو كان ما بين أيدينا الآن لا يعدو الكتيب الذي وضعه بيير مارتير، والرسالة التي كتبها مكسيميليان ترتسلفانوس، والمذكرات الجافة التي دونت في سجلات السفن. فإن ذلك الشاب وحده بيجافيتا، فارس رودس، الذي كان يبدو أقل رجال الحملة فائدة، هو الذي نقل إلى الأحقاب ذلك العمل العظيم الذي قام به ماجلان.

نعم، إن بيجافيتا الطيب القلب لا يمكن أن يقارن بمؤرخين مثل تاسيت وتيت ليف. فهو في أسلوب كتابته، كما هو في ميله إلى المغامرة، هوائي ظريف. ومعرفة الناس ليس من مزاياه. ولهذا يخيل إلينا أنه لم يعرف شيئاً من الخلافات التي نشبت

(١) امريكو فسبوسي ، رحالة إيطالي ، ولد في سنة ١٤٥١ ومات في سنة ١٥١٢ . وقد ذهب اربع مرات إلى العالم الجديد بعد أن اكتشفه كريستوف كولومب ، واطلق علماء الجغرافيا اسمه على ذلك العالم فعرف باسم «أمريكا» .

بين ماجلان وربابنة السفن. غير أن تجاهله لسير الحوادث بصورة عامة، جعله يهتم بالتفاصيل، فيدونها بدقة كما يفعل التلميذ حين يقص رحلة أسبوعية. وشهادته ليست دائماً مصدقة، لأنه يؤمن بكل ما رواه البحارة له من أكاذيب، بعدما فطنوا إلى أنه حديث العهد بالمهنة، يجوز عليه كل شيء.

ولكن بيجافيتا يجعلنا ننسى تلك الهفوات بدقته في وصف جميع الحوادث حتى التافه منها، وقد بلغ من الدقة أن دون في مذكراته ما سمعه من كلمات سكان بتاجونيا[١] الذي كان يخاطبهم بالإشارة، وإليه يرجع الفضل في وضع أسس أول قاموس للغات الأمريكية.

ومن مفاخر بيجافيتا، أن شكسبير قد استعان فيما بعد بالصفحات التي كتبها يصف ثورة البحر وهياجه، فجعلها الشاعر الكبير مشهداً في مسرحيته الشهيرة «العاصفة». وأي شيء أجمل من هذا يتمناه كاتب صغير؟ فقد اختار عبقري عظيم صفحات من مؤلفه، أدخلها في مسرحية خالدة، فارتفع به كالنسر في أعلى أجواء الخلود!

* * *

لقد انتهى ماجلان من تفتيشه للسفن، وفي وسعه الآن أن يؤكد أنه أدخل في حسابه كل احتمال يمكن أن يخطر في بال بحار واسع التجارب. غير أن كل رحلة نحو هدف مجهول تنطوي على احتمالات غير مقدرة. والرجل الذي يدرس مدققاً جميع وسائل النجاح في رحلة مثل هذه، يجب عليه أيضاً أن يقدر لرحلته الفشل، ولنفسه عدم العودة إلى بلاده. ولهذا، فإن ماجلان قد كتب وصيته قبل رحيله بيومين.

ولا يسع المرء أن يطالع هذه الوصية بدون أن يتولاه التأثر. فإن هذا الرجل الذي يدون إرادته الأخيرة يحسب، على وجه التقدير، ما يتركه لورثته. ولكن، كيف يمكن لماجلان أن يقدر ثروته؟ وماذا يكون بعد سنة؟ أيكون متسولاً بائساً أم ثرياً في قمة الثراء؟ هذا سر وراء الغيب، فإن كل ما يملكه الآن عقد مبرم بينه وبين التاج. فإذا نجحت الرحلة، ووجد ماجلان المنفذ الذي يصل المحيطين وبلغ جزر التوابل ثم عاد منها

(١) بتاجونيا: إقليم واقع في طرف أمريكا الجنوبية، جنوب جمهوريتي شيلي والأرجنتين، ويقع شطر منه في كل من الجمهوريتين.

بغنائم موفورة، فإنه سيعود إلى إسبانيا غنياً مثل قارون. وسيتوارث أبناؤه من بعده وأحفاده من بعدهم لقب «حاكم». أما إذا قدر له أن يضل الطريق، فلم يجد الممر المنشود، وذهبت سفنه حطاماً في البحر، فإن زوجته وابنه سيمدان الأكف للناس على أبواب الكنائس!

وفي وسع السماء وحدها، سيدة الرياح والأمواج، أن تحبط المشروع أو تنجحه، ولذلك فإن ماجلان المؤمن الورع، يستسلم لإرادة الله. وقبل أن يذكر في وصيته الناس، ذكر «الله القادر الذي بيده مقاليد كل شيء». فالرجل المتدين هو الذي يتكلم أولاً، ثم النبيل فالزوج فالأب.

وإن ماجلان ليظل محتفظاً بصفاء ذهنه وقدرته على التنبؤ حتى في مثل هذا الظرف، وقد كان ذلك شأنه في جميع أطوار حياته. فعندما كتب وصيته ذكر فيها جميع الاحتمالات، وأوصى إذا قدر له الموت في إسبانيا أن يدفن في أشبيلية، في ضريح منفرد بكنيسة سانتا ماريا. وإذا حم قضاؤه في أثناء السفر، فهو يرغب أن ينقل جثمانه ويدفن في أقرب كنيسة مكرسة للعذراء مريم.

ويحدد ماجلان في وصيته توزيع الهبات بدقة أملتها روح مشبعة بالتدين. فهو يخص بجزء من عشرة من خمس دخله ثلاث كنائس في أشبيلية ومونسرات وأويوبورتو. ويخص كنيسة أخرى في أشبيلية بألف مرافيدي، لأنه صلى فيها قبيل سفره ويأمل أن يصلي فيها إذا أراد الله له العودة. ويخص مؤسسات دينية أخرى ومستشفيات بمبالغ مختلفة، راجياً من الذين ستصل هذه المبالغ إليهم أن يصلوا لله من أجل راحته في الأبدية، ويرغب أن توزع الأقوات والثياب على الفقراء بعد موته.

أما وقد انتهى من الناحية الدينية والإنسانية، فهل يلتفت إلى زوجته وابنه؟ كلا! إنه يفكر في عبده هنريك ومصيره، فيقول إنه ابتداء من يوم وفاته، يصبح عبده هنريك، المولود في مدينة ملقة، والبالغ من العمر ستاً وعشرين سنة، حراً من كل قيد، يصنع ما يشاء وكيفما يشاء. ويجب أن يؤخذ من تركته عشرة آلاف مرافيدي نقداً للإنفاق منها على عبده القديم.

والآن فقط، بعد أن فكر في حياته الأخرى، وفرغ من أعمال البر التي تشفع له

عند الله، حول اهتمامه إلى أسرته. ولكن شيئاً آخر يشغل باله قبل التوصية بثروته المشكوك فيها لزوجته وابنه، ذلك هو الحفاظ على اسمه شعار أسرته. فإنه يختار من أقاربه من الدرجة الثانية أو الثالثة، الرجل الذي سيؤول إليه الشعار إذا مات ابنه قبله. وهكذا دبر ماجلان المؤمن أمر الخلود في الآخرة، كما دبر ماجلان سليل النبلاء أمر الخلود في هذه الدنيا!

وأخيراً، اتخذ جميع التدابير وحررت جميع البنود. ووقع أمير البحر على الوثيقة بخط رصين جاف: «فرناو دي ماجلانس». وقد ظن ماجلان أن توقيعه وتوقيعات الشهود التي تثبت صحة الوثيقة ضمان نهائي لتنفيذ إرادته الأخيرة. ولكن الأقدار لا تتقيد بجرة قلم. ولا تستجيب لكل التمنيات وقد أرادت الأقدار ألا تتحقق رغبة واحدة من تلك الرغبات، وأن تحبط التدابير الدقيقة التي ذكرناها، وتبقى وصية ماجلان حبراً على ورق، والذين جعلهم ورثته لن يأخذوا شيئاً. والفقراء الذين فكر فيهم لن يجدوا عزاء. وجثمانه لن يدفن في المكان الذي كان يريده. وشعاره سيفقد إلى الأبد.

وأما الذي يمكث بعده، فالعمل العظيم الذي اضطلع به. والبشرية وحدها ستكون وريثته الحافظة للجميل!

أما وقد أدى ماجلان آخر واجباته قبل أن يغادر البر، فقد أزفت ساعة الرحيل. وها هي زوجته التي عرف معها أول سنة سعيدة في حياته، واقفة أمامه مضطربة، تحمل بين ذراعيها الطفل الذي رزقاه وتشهق باكية، فيقبلها ماجلان آخر مرة، ويصافح بربوسا، الذي يصطحب معه ابنه الوحيد، ثم يصعد مسرعاً إلى الزورق الذي سيحمله إلى سان لوكار، حيث تنتظره السفن.

وصلى ماجلان مع رجاله للمرة الأخيرة في كنيسة سان لوكار الصغيرة. وعند الفجر - في يوم الثلاثاء ٢٠ سبتمبر سنة ١٥١٩ الذي سيصبح من الأيام التاريخية الخالدة - رفعت السفن مراسيها، ونشرت في الفضاء أشرعتها وأطلقت المدافع تحية للبر الذي يبتعد الآن ويختفي.

بحث فاشل
سبتمبر ١٥١٩ - أبريل ١٥٢٠

في ٢٠ سبتمبر ١٥١٩، شطت سفن ماجلان عن ساحل القارة الأوروبية. ولكن الممتلكات الإسبانية خارج أوروبا كانت في ذلك الوقت مترامية الأطراف بعيدة الامتداد. وعندما وصلت السفن بعد ستة أيام إلى تنريفي في جزر كناري، لتكملة حاجتها من المياه العذبة والمواد الغذائية، كانت لا تزال في نطاق الأقاليم الخاضعة لسلطة الإمبراطور. وأتيح مرة أخرى للمغامرين أن يطأوا أرض وطنهم، ويسمعوا لغة بلادهم، قبل أن يوغلوا في المناطق المجهولة.

غير أن هذه الوقفة لن تدم طويلاً. فقد تأهب ماجلان لإصدار أمره باستئناف الرحيل، وإذا بسفينة تتراءى من بعيد قادمة من إسبانيا تحمل إليه رسالة سرية من حميه ديجو بربوسا ينبئه فيها بأنه علم بمؤامرة دبرها الربابنة الإسبانيون في السفن ترمي إلى خلع طاعته في أثناء الرحلة. وأما رأس المؤامرة، فهو جوان دي كرتاجينا، ابن عم مطران بورجوس، الذي سبق أن أظهر لماجلان عداءه وحاول منعه من السفر.

وليس عند ماجلان ما يحمله على الشك في صحة هذا النبأ، فقد جاء مصداقاً لما أنبأه به الجاسوس البرتغالي ألفاريز، ولكن، لقد قضي الأمر!

وتأهبت إرادة ماجلان لمواجهة الأخطار، ولهذا فإنه يرد على حميه، قائلاً: إنه، مهما حدث، فسوف يظل وفياً للإمبراطور، ولو كلفه ذلك حياته.

وأصدر ماجلان أمره برفع المراسي، دون أن يدع أحداً يفطن إلى النبأ السيئ الذي حملته إليه تلك الرسالة - وهي آخر رسالة تلقاها في حياته. ولم تمض ساعات حتى كانت قمة جبل تنريف تختفي وراء الأفق. وكانت هذه آخر مرة رأى فيها كثير من رجال الحملة أرض وطنهم!

* * *

إن أشق مهمة في هذه الرحلة، هي إبقاء السفن قريباً بعضها من بعض، وبالرغم من تفاوت حمولتها وسرعتها. فإذا ضلت واحدة منها، فهي هالكة لا محالة في خضم المحيط اللانهائي. ولكي يتجنب ماجلان هذا الخطر وضع قبل الرحيل بالاتفاق مع بيت الهند، نظاماً خاصاً لضمان الاتصال بين السفن بصورة دائمة، فأعطيت للربابنة وقواد السفن، التعليمات الخاصة بسير القافلة المقرر، وأصبح على السفن جميعاً أن تتبع بكل بساطة ودقة، سفينة القيادة «ترينيداد» وهي تمخر العباب. وليس اتباع هذا الأمر عسيراً في النهار. فإن في وسع كل سفينة أن تبقى على مرأى من الأخريات، إن سجا البحر وهدأ أو أزبد وهاج. ولكن ذلك عسير بالليل، ولأجل ذلك يجب على السفن أن تعمل بذلك النظام الخاص، نظام الإشارات المضيئة. فعندما يغشى الليل يوضع في مؤخرة السفينة «ترينيداد» مشعل داخل مصباح زجاجي لتقتفي السفن الأخرى آثارها، فإذا رفع في مؤخرة سفينة القيادة مشعلان، كان على السفن الأخرى أن تبطئ في السير، أو تتمايل في طريقها بسبب الرياح المعاكسة، أما المشاعل الثلاثة فمعناها أن المطر يوشك أن ينهمر وأنه يجب ضم الأشرعة الصغيرة. فإذا رفعت أربعة مشاعل، وجب ضم القلوع كلها...

وإذا أشعلت النار على ظهر سفينة القيادة، أو أطلقت المدافع، كان على السفن أن تسير بحذر شديد، لاقترابها من القيعان أو كثبان الرمل القريبة من سطح البحر. وصفوة القول، أن النظام الذي وضعه ماجلان يقوم على إشارات مضيئة طبقاً للطوارئ المحتملة.

وعلى كل سفينة أن ترد في الحال على كل إشارة بإشارة مثلها، ليعلم القائد العام أن أوامره قد فهمت ونفذت. كما يجب على كل سفينة أن تقترب من سفينة القيادة، قبيل المساء، وتحيي أمير البحر بعبارة وضعت لهذا الغرض، وتتلقى منه التعليمات المراد تنفيذها خلال الليل. وبفضل هذا الاتصال اليومي، أصبح النظام مضموناً منذ اليوم الأول، فسفينة القيادة سائرة في طليعة السفن الأخرى تشق الطريق والربابنة يطيعون أوامر القيادة دون أن ينبسوا بكلمة.

غـير أن هذا النظام ذاته هو الذي أزعج ربابنة السفن الأخرى إزعـاجاً شديداً. فـإن قـيادة القـافلة تلبث دائماً في يد رجل واحد، وهي يد حديدية قـاسـية. وهذا البرتغالي الصامت الذي لا يقترب منه أحد، العنيد في حفاظه على سره، يوقف الربابنة في الصف كل يوم كأنهم جنود جدد، ثم يصرفهم بعد أن يبلغهم أوامره!

لقد ظنوا بلا شك ـ وهو ظن في محله ـ أن ماجلان لم يمتنع عن الإفشاء بأية معلومات عن سير رحلته وهدفها، إلا ليكتم سر الممر عن جواسيس الأعداء، وأنه سيخرج من صمته حين يصبح في عرض البحر، فيدعوهم للاجتماع به على ظهر سفينته، ويشرح لهم، على الخرائط، الخطة التي حرص على إخفائها حتى تلك الساعة. ولكنهم رأوا ماجلان قد ضاعف صمته وغموضه وعزلته. فهو لا يدعوهم إلى سفينته، ولا يسألهم رأيهم ولا يستشيرهم أبداً. وما عليهم إلا أن يتبعوا علم القيادة نهاراً، ومشعل السفينة ليلاً، كما يتبع الكلب صاحبه. وقد احتمل الضباط الإسبانيون في الأيام الأولى بشيء من الصبر، ما أبداه ماجلان من عزمة في قيادتهم. ولكن، عندما لبث أمير البحر سائراً نحو الجنوب، في الطريق الموازي لساحل سيراليون بإفريقيا، ولم يعرج إلى الجنوب الغربي نحو البرازيل... قرر جوان دي كرتاجينا، منذ ذلك المساء، أن يطالب بمعرفة الأسباب الداعية إلى ذلك.

ولابد أن نشير إلى أن السؤال الذي وجهه دي كرتاجينا إلى ماجلان لم يكن بعيداً عن اختصاصه، لأن معظم الذين كتبوا عن هذه الرحلة، حاولوا تبرير سلوك ماجلان بتصويرهم جوان كرتاجينا في صورة الخائن. فإن ربان أكبر سفن القافلة، ومندوب التاج الإسباني، يحق له في الواقع أن يسأل أمير البحر لماذا عدل طريق السير التي رسمت من قبل...

فما هي الأسباب التي دعت ماجلان إلى تغيير طريقه؟ هذا ما لم يعلمه أحد... ولعله واصل السير على طول الساحل الإفريقي، حتى بلاد غينيا، ليقابل الرياح المقبلة من الغرب، وهذا سر من أسرار الملاحة عند البرتغاليين كان الإسبانيون يجهلونه. ولعله أيضاً انحرف في طريقه لينجو من السفن التي أرسلها مانويل ملك البرتغال إلى البرازيل للاستيلاء على سفنه.

ومهما تكن الأسباب، فإنه كان يسهل على ماجلان أن يبسط بصراحة للربابنة الآخرين العوامل التي حملته على سلوك طريق آخر. ولكن المسألة في نظره مسألة مبدأ لا مسألة انحراف بضعة أميال عن الطريق المرسوم. ولهذا، صمم على المحافظة على النظام في أسطوله منذ الساعة الأولى. وإذا كان في السفن متآمرون ـ كما أنبأه بذلك حموه بربوسا ـ فالأفضل أن يزيحوا النقاب عن أنفسهم في الحال. وإذا كانت هناك تعليمات سرية أخفوها عليه، فلتعلن هذه التعليمات بلا إبطاء. وإنها لفرصة سانحة يعرف فيها ماجلان حقيقة جوان دي كرتاجينا، ويعلم مدى طاعته أو عصيانه.

والواقع أن مركز كل منهما تجاه الآخر يكتنفه الغموض. فإن جوان دي كرتاجينا كان قد عين بادئ الأمر رباناً للسفينة «سان أنطونيو» وعهد إليه بوظيفة أخرى تجعله مرؤوساً لماجلان. فلما نحى ماجلان شريكه فاليرو، خلفه جوان دي كرتاجينا وعين مساعداً لأمير البحر. واعتمد كل منهما على وثيقة رسمية تجعل أحدهما ماجلان قائداً عاماً للعمارة، وتجعل الثانية جوان دي كرتاجينا مراقباً لجميع حالات الإهمال وعدم التبصر التي تصدر عن الربابنة الآخرين.

ولكن هل يحق للمساعد محاسبة أمير البحر على تصرفه؟ هذه مسألة لابد من الفصل فيها. ولهذا، فإن ماجلان قد أجاب إجابة جافة على السؤال الذي وجهه إليه جوان دي كرتاجينا فيما يتعلق بتغيير الطريق، فقال: «إنه ليس لأحد أن يحاسبه على تصرفه، بل على الجميع طاعته بلا قيد ولا شرط!».

إن الإجابة قاسية... ولكن ماجلان يفضل العمل السريع الجاف على الالتجاء إلى التهديد أو التساهل. وقد أفهم بعمله هذا الربابنة الإسبانيين ـ وقد يكونون متآمرين عليه ـ أن لا أمل لهم في التغلب على إرادته، وأنه قابض على ناصية الأمور. غير أن ماجلان، الذي يتحلى بالنشاط والشدة، يفتقر إلى القدرة على تهدئة الخواطر بعد أن يضرب ضربته. فهو لم يتعلم كيف يصوغ الأوامر الجافة في ألفاظ رقيقة، أو يتحدث بلطف مع رؤسائه أو مرؤوسيه على السواء. وهذا ما يفسر كيف نشأ حواليه التوتر والعداء وازداد من ساعة إلى أخرى، إذ اتضح للربابنة أن تعديل

السير الذي دهش له جوان دي كرتاجينا خطأ ظاهر أقدم عليه ماجلان.

فإن الرياح الغربية التي توقعها لم تهب. واضطرت السفن إلى الجمود في مكانها خمسة عشر يوماً، في مياه ساكنة تماماً. ثم داهمتها عواصف هوج قال بيجافيتا إنها أوشكت أن تقضي على القافلة ولكنها نجت من الهلاك بأعجوبة.

ولم يتمالك جوان دي كرتاجينا نفسه، فثار ثائره. وما دام ماجلان لا يريد الإصغاء إلى أية نصيحة، ولا يتقبل أي نقد، فيجب إذن أن يعلم الجميع في السفن إلى أي حد يحتقر جوان كرتاجينا ذلك الملاح الغبي! نعم إن سفينته «سان أنطونيو» قد اقتربت في ذلك المساء كالمعتاد من السفينة «ترينيداد» لكي يقدم لماجلان تقريره ويتلقى أوامره، ولكن جوان دي كرتاجينا لم يظهر بنفسه على ظهر سفينته، بل أوفد نائبه بدلاً منه، وقد خاطب هذا الضابط القائد العام بهذه العبارة: «حياك الله يا سيدي الربان القائد».

وأدرك ماجلان مغزى ما خاطبه به الضابط الذي استبدل بعبارة «القائد العام» المتواضع عليها عبارة «الربان القائد».

وفهم المغامر البرتغالي اللبيب أن دي كرتاجينا يريد أن يعلن أمام بحارة السفن أنه لا يعد نفسه مرؤوساً لماجلان. وعلى هذا، فقد أرسل أمير البحر في الحال إلى جوان دي كرتاجينا يقول إنه يأمل أن توجه إليه في المستقبل التحية بالعبارات المتفق عليها.

ولم يتقبل جوان دي كرتاجينا هذا الأمر بالصمت، بل رد عليه ببرود قائلاً إنه يأسف لعدم استطاعته إجابة طلبه. وإذا كان قد حياه في هذه المرة بلسان أكبر ضباطه، فإنه في المرة القادمة سيحييه بلسان أصغر بحارته... ومرت ثلاثة أيام رفضت فيها السفينة «سان أنطونيو» تحية سفينة القيادة، معلنة للسفن الأخرى أن ربانها لا يخضع للقائد البرتغالي.

إذن فإن جوان دي كرتاجينا قد ألقى قفازه في وجه القائد البرتغالي علناً وعلى مرأى من الجميع، ولم ينسج له خيوط الدسائس في الخفاء بالصورة التي وردت في التقارير الرسمية واصفة دي كرتاجينا بالمكر والدهاء.

* * *

إن أخلاق الرجل تتجلى في الساعات العصيبة. والصفات التي تبقى في الأوقات العادية كامنة في الصدور تظهر فجأة وقت الخطر. وقد اعتاد ماجلان أن يواجه الحوادث بطريقة واحدة.

فهو يتصف بصمت وبرود عجيبين، وأشد الإهانات فظاعة لا تزيد في بريق عينيه، خلف حاجبيه الكثيفين، ولا تؤثر في أعصابه. بل إنه يظل محتفظاً بهدوئه. وذلك البرود المتناهي، في مثل هذه الظروف، يجعله قادراً على رؤية الأشياء بوضوح تام. وهو يجيد وضع الخطة التي يجب السير عليها في الوقت الذي يكون فيه سجين صمته، فهو لا يقدم أبداً على عمل مدفوعاً بالغضب، أو التسرع. ولكنه يصمت طويلاً، ثم ينفجر!

وقد لزم ماجلان الصمت في هذه المرة أيضاً. فظن الذين لا يعرفونه من الإسبانيين أنه لم يدرك مدى التحدي الذي وجهه إليه جوان دي كرتاجينا. ولكنه في الواقع كان يستعد للرد عليه. فهو يعلم أنه لا يسعه، في عرض البحر، أن يذهب إلى سفينة أكبر من سفينته وأتم تسليحاً منها، لعزل ربانها من منصبه، فصبراً إذن وليتظاهر بعدم الاكتراث!

وهكذا لزم ماجلان الصمت أمام الإهانة ورجاله يرونه كل يوم يروح ويجيء على ظهر السفينة ترينيداد، هادئاً، متظاهراً بالانصراف إلى مراقبة الأعمال اليومية الكثيرة.

إن السفينة سان أنطونيو لا تزال ممتنعة عن تحيته في المساء. ولكن البحارة يظنون أن هذا لا يؤثر فيه، بل إن الربابنة أدركوا، بشيء من الدهشة، أن ذلك الرجل الغامض يبدي فجأة ميلاً إلى المصالحة. وللمرة الأولى، لمناسبة خروج أحد البحارة على النظام، دعا أمير البحر الربابنة الأربعة للاجتماع به على ظهر سفينته.

واعتقد الربابنة أن ماجلان قد ضاق ذرعاً بجو العداء الذي يعيش فيه، وأنه أدرك ـ بعد ظهور خطئه في اختيار الطريق الصحيح ـ أن الخير في استشارة الربابنة القدماء المجربين لا في إهمالهم وإطراح مشورتهم.

ولبى جوان دي كرتاجينا الدعوة. ولما كانت الفرصة قد سنحت ليخاطب ماجلان وجهاً لوجه، فقد أعاد الكرة وسأله مرة أخرى لماذا غير طريق السير. لكن ماجلان لم يرد على السؤال. ولاشك أنه قد رسم لنفسه خطة عزم على تنفيذها، وهي أن يثير بموقفه الجامد غضب جوان دي كرتاجينا. فإن هذا الربان، بوصفه أكبر موظفي التاج، يعتقد أن له الحق في أن يتكلم بحرية...

ويغلب على الظن أن حادثاً عنيفاً وقع بين الرجلين، وأن جوان دي كرتاجينا قد انزلق إلى ما يشبه رفض الطاعة. وكان ماجلان قد توقع مثل هذا التمرد، بل تمناه.

فالآن، أصبح في وسعه أن يضرب!

ولم يتردد... فقد استخدم حقه المطلق في معاقبة كل مذنب، فقبض على جوان دي كرتاجينا من صدره صائحاً: «أنت أسيري!» وأصدر في الحال أمره إلى رئيس الشرطة باعتقال الضابط المتمرد.

وشاهد الربابنة الآخرون ما حدث مذهولين، فلم يفوهوا بكلمة. ومع ذلك، فقد كانوا، منذ دقائق فقط، على وفاق تام مع جوان دي كرتاجينا. بل إنهم لا يزالون حتى هذه اللحظة مؤيدين في السر لمواطنهم ضد القائد الأجنبي. ولكن سرعة الضربة، والشدة الجهنمية التي لجأ إليها ماجلان لاعتقال خصمه كأنه مجرم عادي، شلتا إرادة الربابنة، وعبثاً جعل جوان دي كرتاجينا يناشدهم أن ينجدوه، فلم يجرؤ منهم أحد على أن يخطو خطوة واحدة أو يرفع نظره إلى الرجل القصير، الذي خرج للمرة الأولى عن صمته، وأظهر هذه الشدة في المعاملة.

وتأهب رجال الشرطة لإخراج جوان دي كرتاجينا، وفي هذه اللحظة فقط، التفت أحد الربابنة إلى ماجلان، ورجاه بعبارات رقيقة، ألا يضع السلاسل الحديدية في يدي نبيل إسباني، وعرض عليه أن يسلمه إلى ربان منهم يتعهد بشرفه أن يحتفظ به أسيراً. وقبل ماجلان الاقتراح، ووقع اختياره على لويس دي مندوسا لمراقبة الربان العاصي، على شرط أن يتعهد له بيمين يقسمها، بأن يضعه دائماً تحت تصرف القائد العام.

وانتهى الحادث عند هذا الحد. وبعد مضي ساعة، كان الضابط الإسباني

أنطونيو دي كوكا يتولى قيادة السفينة سان أنطونيو، خلفاً لجوان دي كرتاجينا. وفي المساء، أرسل تحيته المتفق عليها إلى «القائد العام» من ظهر سفينته. واستقر كل شيء واستأنفت القافلة سيرها بدون حادث آخر.

وفي ٢٩ نوفمبر، نادى الرقيب من أعلى مكمنه أن قد بدت في الأفق أرض البرازيل، ورأى البحارة ساحل برنامبوك. وفي ١٣ ديسمبر، دخلت السفن الخمس خليج ريو دي جانيرو بعد سفر استغرق أحد عشر أسبوعاً.

ولاشك أن ذلك الخليج الذي لم يكن في ذلك الوقت أقل جمالاً منه الآن بعد إنشاء المدينة الزاهرة ـ قد بدا لرجال السفن المنهكين كأنه الفردوس وقد أطلق عليه هذا الاسم لأنه اكتشف يوم عيد القديس «جانيرو» ولأن الذين اكتشفوه كانوا يعتقدون أن وراء الجزر القائمة في مدخله نهراً، أي «ريو» يصب في البحر[(١)]. ويقع خليج ريو دي جانيرو في نطاق الممتلكات المخصصة للبرتغال. ولو خضع ماجلان للتعليمات الصريحة التي تلقاها، لما كان له الحق في النزول إلى البر هناك. ولكن البرتغاليين لم يكونوا في ذلك الوقت قد انشأوا بعد مراكز تجارية ولا شيدوا حصوناً مجهزة بالمدافع. ففي الواقع، أن تلك البقاع كانت لا تزال مهملة وعلى الحياد. ولهذا، فإن السفن الإسبانية في وسعها أن تلقي مراسيها دون أن يزعجها أحد.

وما إن اقتربت السفن من الشاطئ، حتى خرج السكان مسرعين من أكواخهم وغاباتهم، واستقبلوا مطمئنين أولئك الأغراب الوافدين عليهم لابسين الدروع. غير أن بيجافيتا يقول فيما بعد إنه علم أن أولئك الأقوام من أكلة لحوم البشر، وإنهم يشوون عدوهم على النار بعد قتله ويلتهمون ألذ قطع من جسمه! إلا أنهم لم يظهروا العداء للرجال البيض القادمين، ولم يضطر الجنود قط إلى استعمال الحراب وقاذفات

---

(١) هناك اعتقاد خاطئ بان اسم «ريو دي جانيرو» أطلق على الخليج ثم على المدينة عاصمة البرازيل لأن ذلك المكان اكتشف في شهر يناير وهو أول شهور السنة عند المسيحيين. والواقع أن اكتشاف ذلك الخليج كان في يوم ١٩ سبتمبر وهو عيد القديس «يناير» أو «جانفيير» وقد اتضح فيما بعد ان ليس هناك نهر ولكن اسم «ريو دي جانيرو» ظل يطلق على عاصمة البرازيل وخليجها. وكانت البرازيل مستعمرة برتغالية منذ القرن السادس عشر ثم استقلت في سنة ١٨٢٢. (المترجم)

السهام.

وبعد ساعات من نزول الإسبانيين إلى اليابسة، بدأت حركة التبادل بينهم وبين السكان. وشعر بيجافيتا للمرة الأولى بأنه في جو يروقه، فبدأ يكتب مذكرات ضافية بعد أن اقتصر ما دونه في الأسابيع الأحد عشر الماضية على حكايات تتعلق بكلاب البحر والطيور الغريبة. ويبدو أنه لم يعلم باعتقال جوان دي كرتاجينا. أما الآن، فإن الريش الذي يكتب به لا يكفيه ليدون في مذكراته اليومية جميع الروائع التي تقع عليها أنظاره.

إنه لا يقول شيئاً في وصف المناظر الطبيعية ولا يسعنا أن نؤاخذه على هذا، لأن وصف الطبيعة أفاض فيه جان جاك روسو، بعد ذلك العهد بثلاثة قرون. فالأثمار التي تنتجها تلك البلاد تثير إعجابه قبل كل شيء: ثمر «الأناناس» الذي يشبه كوز الصنوبر ولكن طعمه لذيذ جداً. وثمر «باتات»(١) الذي يشبه الكستناء. وقصب السكر وغير ذلك من منتجات الأرض.

وهو لا يتمالك حماسته أمام الأسعار الزهيدة التي يبيع بها السكان منتجاتهم. فإنهم يعطون خمس دجاجات أو ستاً مقابل صنارة واحدة لصيد السمك، وأوزتين مقابل مشط واحد، وعشر ببغاوات نظير مرآة صغيرة وكمية من السمك تكفي لإطعام عشرة أشخاص عوضاً عن قفص واحد. أما الأجراس ـ ونحن نذكر أن نحو عشرين ألفاً منها قد وضعت في السفن ـ فإن جرساً واحداً يكفي للحصول على سلة مملوءة بثمر الباتات اللذيذ. وحدث مرة لبيجافيتا أن أعطاهم ورقة «الملك» من ورق لعب قديمة. فأبدلوه بها خمس دجاجات، واعتقد البائعون أنهم خدعوه!

ومما يباع أيضاً بأسعار زهيدة جداً، الفتيات! وقد وصفهن بيجافيتا قائلاً إن شعورهن هي كل ما يرتدينه من ثياب. فمقابل سكين أو فأس يحصل الرجل على فتاتين أو ثلاث يصبحن ملك يمينه طول عمره!

وبينما كان بيجافيتا منصرفاً إلى تدوين مشاهداته، والبحارة إلى التهام الطعام وصيد السمك واللهو مع الفتيات، كان ماجلان من ناحيته يتأهب لاستئناف

(١) «باتات» كلمة في لغة سكان امريكا الأصليين لثمر نقل من امريكا إلى اوروبا واطلق عليه اسم «باتاتا» او «تفاح الأرض» وهو البطاطس.

الرحيل. فهو لا يغضبه أن يلهو رجاله، ولكنه يحافظ بدقة على النظام. وقد عمل بالقسم الذي ارتبط به تجاه ملك إسبانيا، فمنع الرقيق على طول الساحل البرازيلي، كما حرم أعمال العنف، كيلا يكون للبرتغاليين سبيل للشكوى.

وقد نجح ماجلان بهذا السلوك النبيل نجاحاً خاصاً، فإنه حين اتضح لسكان البلاد الأصليين أن الأجانب لا يضمرون لهم سوءاً، وفدوا جماعات على ماجلان ورفاقه يختلطون بهم في اطمئنان تام. وفي أواخر ديسمبر، أي بعد ثلاثة عشر يوماً من النزول بالساحل، أقلعت السفن الإسبانية مبتعدة عن الخليج الذي ترك في نفوس رجالها أطيب الذكريات.

وفي وسع ماجلان الآن أن يواصل رحلته ناعماً براحة ضمير لا ينعم بها غيره من رواد البحر الفاتحين. نعم، إنه لم يفتح بلاداً جديدة باسم شارلكان، ولكنه لم يرتكب عنفاً ولم ينتزع أحداً من بيته، فقد نزل على الساحل بسلام، ورحل عنه بسلام!

* * *

غادر البحارة بشيء من الحسرة خليج ريو دي جانيرو الساحر، وها هم الآن يمرون تجاه شواطئ البرازيل فلا يسمح لهم بالنزول إليها. ولكن ماجلان أصبح في حالة تمنعه من الراحة مرة أخرى. فهو مدفوع إلى الأمام برغبة ملحة، نحو الممر الذي يعتقد، بناء على ما جاء في خريطة مرتان بيهايم وتقارير البرتغاليين المغامرين، أنه موجود في مكان معين. وإذا صحت روايات الملاحين البرتغاليين، والمقاييس التي ذكرها مرتان بيهايم في خريطته، فإن ذلك الممر لابد أن يكون موجوداً خلف رأس سانتا ماريا. وهذا ما يحمل ماجلان على الدأب في السير.

وأخيراً، في اليوم العاشر من شهر يناير، وصلت السفن إلى رأس سانتا ماريا، وأخذت الأعين من بعيد قمة جبل صغير تشرف على سهل لا نهاية له. وأطلق ماجلان على ذلك المكان اسم «مونتيفيدي» وتقوم اليوم هناك مدينة «مونتيفيديو»[١] ولجأت السفن، لاتقاء العاصفة، إلى الخليج الواسع الممتد

(١) عاصمة جمهورية أورغواي بأمريكا الجنوبية .

مسافات لا ترى نهايتها نحو الغرب.

ولم يكن ذلك الخليج غير مصب نهر «ريو دي لابلاتا» وماجلان يجهل ذلك. ولكنه يتبين بسرور لم يقو على كتمانه، أن المكان الذي تشير إليه التقارير يمتد نحو الغرب، أي إلى الجهة التي توجد فيها جزر ملوك المنتجة للتوابل. ويبدو له أن كل ما يراه أمامه يتفق مع الوصف الذي سمعه في لشبونة. فلابد إذن أن يكون ذلك الخليج هو الممر الذي قيل إن البرتغاليين حاولوا، قبل ذلك الوقت بعشرين سنة، أن يجتازوه نحو الغرب. ويقول بيجافيتا إن الجميع كانوا يعتقدون أنهم قد وفقوا إلى اكتشاف الممر المنشود.

ولا غرابة أن يكون ماجلان نفسه قد اعتقد، منذ اليوم الأول، وأمام تلك الصفحة الهائلة من المياه، أنه عثر على الممر الذي يبحث عنه. وما كادت العاصفة التي داهمت العمارة تهدأ، حتى عمد ماجلان إلى توزيع أسطوله، فأرسل السفن الثلاث الصغيرة إلى القناة التي اعتقد أنها تؤدي إلى الغرب، والتي لم تكن غير نهر بلاتا وقاد بنفسه السفينتين الأخريين الكبيرتين، واتجه بهما جنوباً خلال المصب الواسع، ليتحقق من وجود الممر في تلك الناحية.

لكن بحثه لم يسفر عن شيء. وبعد خمسة عشر يوماً، رأى قلوع السفن الثلاث وهي عائدة إلى المكان المحدد للقاء. وكانت خيبة أمل مرة! فإن السفن لا ترفع على صاريتها العلم المبشر بالخير. والربابنة يحملون معهم خبراً يبعث اليأس، فإن تلك المياه التي ظنوها بادئ الأمر القناة المنشودة، ليست في الواقع غير نهر تندفع مياهه بقوة غير مألوفة. وكان المغامر جوان دي سوليس قد بحث في ذلك المكان عن الطريق إلى ملقة، ولكنه لقي حتفه. فأطلق اسمه مؤقتاً على ذلك النهر فسمي «ريو دي سوليس» ثم أبدل هذا الاسم فيما بعد، فسمي النهر «ريو دي لابلاتا»(١).

إذن، فعلى ماجلان أن يضغط أعصابه. وينبغي ألا يفطن أحد من رجاله إلى أي حد زعزعت خيبة الأمل ثقته بنفسه. ومنذ هذه اللحظة، تأكد ماجلان من شيء

---

(١) ريو دي لابلاتا اسم مصب نهرين : نهر «أوروغواي» ونهر «بارانا» وهو أوسع مصبات الأنهار في العالم، إذ يبلغ عرضه عند منفذه ٢٢٠ كيلومتراً . وتقع على ساحله مدينة مونتيفيديو عاصمة جمهورية أوروغواي . ومدينة بونس ايرس عاصمة جمهورية الأرجنتين .

واحد، وهو أن خريطة مرتان بيهايم خاطئة، وتقارير البرتغاليين الخاصة باكتشاف ممر مزعوم عند الدرجة ٤٠ من خط العرض غير صحيحة. وجميع معلوماته، وجميع تقديرات فاليرو، وجميع توكيداته، وجميع ما وعد به الإمبراطور ومستشاريه، كل ذلك قائم على خطأ! وإذا كان ذلك الممر موجوداً - وماجلان يشك الآن في وجوده بعد أن كان يعتقد ذلك - فلابد أن يكون واقعاً في مكان آخر، بعيداً نحو الجنوب.

لكن مواصلة السير نحو الجنوب ليس معناها الذهاب إلى مناطق حارة، بل بالعكس. فقد تجاوزت السفن من زمن بعيد خط الاستواء، فمعنى السير إلى الجنوب إذن، الاقتراب من الأصقاع القطبية. وشهرا فبراير ومارس لا يعنيان هنا نهاية الشتاء بل بدايته. فإذا لم يتم بسرعة اكتشاف الممر في بحر الجنوب، فالفصل الملائم يكون قد انقضى، وستجد السفن نفسها أمام أمرين لا ثالث لهما: العودة إلى مناطق أكثر اعتدالاً، أو قضاء فصل الشتاء في هذا المكان!

* * *

منذ اليوم الذي عادت فيه السفن التي أرسلت للاستكشاف، حاملة النبأ المخيب للآمال، لابد أن تكون الأفكار المزعجة قد انتابت نفس ماجلان، ولابد أن تكون الدنيا قد اسودت في عينيه. فهو يرى أمامه الساحل قاتماً، عارياً، قاحلاً يوماً بعد يوم. ويرى السماء تزداد عبوساً. فقد انطفأ النور الأبيض الساطع من الجنوب. والغيوم الكالحة تتلبد بها السماء الزرقاء. واختفت الغابات الكثيفة التي كانت تداعب السفن المقتربة من الساحل بنسماتها المنعشة. نعم لقد اختفى كل ذلك دون أمل في رجعته: مناظر البرازيل اللطيفة، وأشجاره المثقلة بالأثمار، ونخله ذو الأغصان المتمايلة، وحيواناته بأشكالها المنوعة، وسكانه الكرماء...

إن العين لا تقع الآن إلا على الطيور البحرية والحيوانات المائية، ولا ترى على الشاطئ أثراً لكائن حي، على مدى البصر، كأن كل حياة انطفأت في تلك الفيافي المجهولة.

حدث مرة واحدة أن وقع نظر البحارة على رجال فارعين متوحشين، يغطون

أجسامهم بجلود الحيوانات، كما يفعل الاسكيمو. ولكن لا شيء يغريهم، لا الأجراس ولا القلانس الملونة التي يلوح لهم بها البحارة. فإنهم كالحو الوجوه عابسون، يبتعدون هاربين كلما حاول أحد الاقتراب منهم. وعبثاً حاول البحارة العثور على أثر للمساكن.

الرحلة تزداد عناء يوماً بعد يوم، وسرعة السفن تخف يوماً عن يوم. وماجلان يحتفظ بخط السير على مقربة من الساحل لا يحيد عنه. وكل خليج مهما يكن صغيراً، وكل مرفأ مهما يكن تافهاً، يدرس درساً وافياً وتقاس أعماق المياه فيه.

نعم، إنه لا يعتمد الآن على تلك الخريطة الملعونة التي دفعته إلى القيام بهذه الرحلة ثم خانته! ولكن، من يدري؟ فقد تحدث المعجزة، وقد يظهر فجأة، في مكان لا يفكر فيه أحد، ذلك الممر الذي سيتيح له دخول بحر الجنوب قبل أن يبدأ فصل الشتاء. وأصبح ماجلان يتعلق بأهداب أمل أخير، وهو أن تكون الخرائط وتقارير البرتغاليين قد أخطأت فقط في تحديد خط العرض ودرجته، وأن تكون الطريق المنشودة واقعة في مكان أبعد من ذلك إلى الجنوب.

ولما اقتربت السفن من جديد، في ٢٤ فبراير، من خليج كبير آخر، وهو خليج سان ماتياس، انتعشت الآمال مرة أخرى، كما تنتعش النار بنفحة النسيم. فأسرع ماجلان بإرسال السفن الصغيرة، لتبحث عما إذا كان الممر نحو جزر ملوك يوجد في ذلك المكان. وجاء الرد مرة أخرى: لا شيء! ومرة أخرى، وجد ماجلان نفسه في خليج مغلق وعادت السفن بخيبة أمل للمرة الثانية. ولم يسفر البحث عن نتيجة أفضل من هذه في خليجين آخرين: خليج «باهيا دي لوس باتوس» وخليج «باهيا دي لوس شراباجوس» فالرجال الذين نزلوا إلى البر في الخليجين لم يحملوا معهم غير جثث الحيوانات البحرية التي اصطادوها، على أنهم عادوا يشكون تصلب أجسامهم من شدة البرد.

واستؤنف السفر، على طول الساحل، إلى بعيد، تحت أشعة شمس كئيبة. وازدادت الوحشة فظاعة. وجعلت الأيام تقصر والليالي تطول. والسفن الآن لا

تسير في جو رقيق، مدفوعة إلى الأمام بنسيم خفيف، بل إن زوابع عنيفة تعبث بالقلوع، والثلج والبرد يتساقطان عليها بشدة، وقد استغرق اجتياز المسافة القصيرة التي تفصل بين ريو دي لابلاتا ومرفأ سان جوليان شهرين كاملين، فالسفن تكافح الزوابع كل يوم، والرياح تهز الصواري والقلوع بعنف، والممر المنشود لا يظهر له أثر.

وهكذا دفع البحارة غالياً ثمن الأسابيع التي قضوها في راحة ونعيم. وبينما كانت السفن تواصل فحص جميع الخلجان، كان الشتاء قد أقبل! وها هو ذا اليوم ماثل أمام رجال الحملة، يسد في وجوههم الطريق. وقد مرت ستة أشهر منذ أقلعت السفن من أشبيلية، وماجلان لم يتقدم خطوة واحدة عما كان عليه في اليوم الأول!

وبدأ البحارة يبدون قلقهم شيئاً فشيئاً. فإنهم يشعرون بأن هناك شيئاً غير عادي. أما قيل لهم في أشبيلية وقت الرحيل، أنهم ذاهبون إلى جزر التوابل، في المناطق الجنوبية النيرة، وفي بلاد تحفل بالنعيم؟ أما وصف لهم العبد هنريك وطنه فقال إنه أرض الخيرات، يقطف فيها الإنسان ما يشاء من التوابل الثمينة؟ أما قطعت لهم الوعود بأنهم سيصبحون أغنياء ويعودون بسرعة إلى وطنهم؟ وبدلاً من ذلك كله، ساقهم هذا الرجل العابس الصامت إلى أصقاع يزداد فيها البرد وتشتد الوحشة يوماً عن يوم.

إن أشعة الشمس الضعيفة تخترق السحب، ولكن السماء تلبث غالباً ملبدة بالغيوم، والجو ينبئ بسقوط الثلج، والرياح تصفعهم بعنف على وجوههم وتتسرب داخل ثيابهم فتمزقها. وأيديهم تتجمد من البرد، كلما لمسوا الحبال المكسوة بالجليد، وأنفاسهم تتحول إلى بخار...

ثم، يا لها من عزلة ويا لها من كآبة! فإن أكلة لحوم البشر أنفسهم قد فروا أمام البرد. وعندما ينزل الرجال إلى البر، لا يجدون حيواناً ولا نباتاً... لا شيء غير الصدف وحيوانات البحر، التي تؤثر الحياة في المياه الباردة، على الحياة في أرض تكتسحها العواصف بلا انقطاع... فإلى أين ساقهم هذا البرتغالي؟ وإلى

أين يسوقهم؟ أهو ذاهب بهم إلى أرض أيسلندا أم إلى القطب الجنوبي؟

عبثاً حاول ماجلان تهدئة الخواطر، فإنه لا يجمل بالبحارة أن يتولاهم الذعر بسبب البرد فيفقدوا شجاعتهم! فسواحل نرويج وأيسلندا تمتد في خط عرض أبعد من هذا المكان بكثير، ومع ذلك فالملاحة في تلك الأصقاع ليست أصعب من الملاحة على سواحل إسبانيا ذاتها. فعلى الرجال إذن أن يصبروا أياماً أخرى. وإذا لزم الأمر، ففي وسع القافلة قضاء الشتاء في مكان دافئ، وانتظار طقس ملائم لاستئناف السفر.

لكن الكلمات المعسولة لم تعد تهدئ روع البحارة... إن السفر في هذه الأصقاع لا يمكن أن يكون ملكهم قد فكر فيه. وإذا كان قائدهم يحدثهم عن النرويج وأيسلندا، فإن وجه الشبه بعيد بينهما وبين هذه السواحل، فالناس هناك قد اعتادوا البرد منذ نعومة أظفارهم، وهم واثقون من العودة إلى بيوتهم بعد ثمانية أيام أو خمسة عشر يوماً. أما هؤلاء البحارة فقد جيء بهم إلى مناطق قفراء، لم يصل إليها مسيحي من قبل، بل إن الوثنيين أنفسهم وأكلة لحوم البشر لا يطيقون سكناها، وحتى الدببة والذئاب قد نأت عنها، فلأي هدف يرتادون هذه المناطق؟ ولماذا يسيرون في هذه الطريق ما دامت هناك طريق الهند الشرقية التي تؤدي براحة واطمئنان إلى جزر التوابل، بدون أن يضطر البحارة إلى اجتياز سهول الجليد وهذه السواحل القاتلة؟

بهذه الاعتراضات رد البحارة بصراحة على توسلات قائدهم. أما فيما بينهم، وفي أثناء اجتماعهم داخل السفن، فإنهم بلا شك يعبرون عن أفكارهم بلهجة أشد عنفاً من هذه...

وعاودتهم الشكوك التي راجت عنها الإشاعات في أشبيلية من قبل: ألا يلعب هذا البرتغالي اللعين لعبة ذات وجهين؟ ألا يرمي إلى استرضاء مليكه بقيادته خمس سفن جميلة من سفن إسبانيا مع رجالها إلى الهلاك؟

وقد كان الربابنة الإسبانيون، ينظرون بعين الارتياح إلى تفاقم السخط بين البحارة. ولكنهم لا يقولون شيئاً، ويتجنبون التحدث مع أمير البحر. بل إنهم

يبالغون في صمتهم. وقد يكون ذلك الصمت أكثر خطراً من ثرثرة البحارة. وقد أدركوا بما لهم من خبرة في شؤون الملاحة، أن ماجلان قد أصيب بخيبة أمل شديدة، وأنه لم يعد واثقاً تماماً من «سره» الذي يكتمه. فلو كان يعرف مكان الممر الذي يبحث عنه، لما جعلهم يتوغلون في مصب نهر بلاتا أسبوعين. ثم، لماذا يضيع وقتاً ثميناً ويقضي أيام عديدة في الكشف عن كل خليج صغير في الطريق؟

إن ماجلان، بادعائه معرفة الطريق إلى الممر المنشود، قد خدع الملك، أو خدع نفسه، إذ إن هناك شيئاً قد أصبح الآن واضحاً: إن ماجلان يبحث عن طريق لا يعرفها. ولهذا، فإن الربابنة يرقبونه بفرح ماكر لا يحاولون إخفاءه، كلما وقف أمام فرجة على الساحل يكشفها بمنظاره، ويتمنون لو واصل السير بالسفن في الجو البارد وعلى صفحة المحيط اللانهائي! فإنهم ليسوا في حاجة بعد الآن إلى مقاومته أو شكواه. فعما قليل تأزف الساعة التي يضطر فيها اضطراراً إلى الاعتراف بخطئه فيقول: «لم أعد أعرف طريقي!» وحينئذ، يمكن إرغام ذلك الرجل المتكبر على أن يحني رأسه!

* * *

ولا يمكن أن يتصور العقل حالة نفسية أفظع من حالة ماجلان خلال تلك الأسابيع. وحتى لو كان الممر موجوداً في مكان ما إلى الجنوب، كما يعتقد هو الآن، فإن فرصة بلوغه هذا العام قد فاتت وأصبح الشتاء حائلاً دونها. ولو اكتشفه بهذه السفن وبحارتها المنهكين، لما تيسر له اجتيازه قبل الربيع. وقد انقضت تسعة أشهر على بدء رحلته، ولكنه لم يصل بعد إلى جزر التوابل كما وعد، وما زالت سفائنه ضالة في المحيط الشاسع، تهاجمها الزوابع وتكتنفها الأخطار.

فالحكمة تقضي إذن بإفشاء الحق، ودعوة ربابنة السفن إلى الاجتماع به، والتصريح بأنه خدع بالخرائط وروايات الملاحين البرتغاليين، وأن الأجدى أن تعود السفن أدراجها في محاذاة ساحل البرازيل لقضاء فصل الشتاء في مكان دافئ.

فإن هذا يتيح للبحارة فرصة لاستعادة قواهم، وترميم السفن، لاستئناف السفر جنوباً عندما يحل الربيع.

هذا ما كان يقضي به المنطق والشعور الإنساني. ولكن ماجلان قد تورط إلى حد لم يعد يسمح له بالتراجع. فقد طالما صرح مؤكداً أنه يعرف طريقاً أقصر من الطريق المألوفة للوصول إلى جزر ملوك. وعاقب بصرامة أولئك الذين عبروا عن شكهم في صحة ما يدعي. وأهان الضباط الإسبانيين، وعزل أكبر موظف من موظفي الملك في عمارته وعامله معاملة المجرم الأثيم. ولا شيء يبرر ذلك كله إلا إحراز نصر سريع. فإن الربابنة والبحارة لن يتركوا زمام القيادة بيده دقيقة واحدة، لو اعترف لهم بأنه لم يعد واثقاً من قضيته بقدر ما كان واثقاً منها يوم الرحيل. وسيرفض أصغر صبيان السفن تحيته: فلا يمكن لماجلان أن يتراجع إلى الوراء. ومنذ اللحظة التي سيصدر فيها أمره بالعودة إلى البرازيل، لن يبقى رئيس ضباطه، بل يصبح أسيرهم.

كل هذه الاعتبارات جعلت ماجلان يقدم على قرار يائس. وكما أن كورتيز، في السنة ذاتها، قد أحرق سفنه ليحرم جنوده من كل وسيلة للتقهقر (١)، فإن ماجلان قرر من ناحيته إبقاء سفنه ورجاله في مكان قصي منعزل، بحيث لا يستطيعون، لو أرادوا، أن يرغموه على الرجوع على أعقابه. فإن وجد الممر في الربيع سارت الأمور على ما يرام. وإن لم يجده، وقعت الكارثة!... فليس إذن أمام ماجلان حل وسط. والعناد وحده يحفظ له القيادة، والجرأة تنقذه!

* * *

داهمت العاصفة سفن القافلة بشدة بالغة. فهي تسير الآن ببطء وعناء. وقد استغرق اجتياز مسافة لا تزيد على اثنتي عشرة درجة إلى الجنوب نحو شهرين. وأخيراً، في ٣١ مارس، بلغت السفن خليجاً جديداً. فهل هو الممر المرتقب؟ كلا!... إنه خليج مغلق. ومع ذلك، فإن ماجلان يصدر أمره بدخول السفن فيه. ولما تبين أن الخليج تتوافر فيه المياه العذبة وتكثر الأسماك، طلب إلى السفن أن تلقي

---

(١) لقد كرر الإسبانيون في تاريخهم أكثر من مرة ما صنعه طارق بن زياد ، الذي أحرق مراكبه بعد نزول رجاله إلى بر الأندلس ، كما هو معروف .

مراسيها. وبلغت دهشة الربابنة والبحارة حد الذعر، عندما علموا أن أمير البحر قد اعتزم - دون مشورتهم - قضاء الشتاء في خليج سان جوليان الصغير المجهول، عند خط العرض ٤٩، في بقعة قفراء جرداء، لم تطأها من قبل قدم أوروبي على الإطلاق.

مطابع الأهرام ٦ أكتوبر . التجارية . مصر

سلسلة كتب شهرية توزع مجانا
مع الصحف التالية

القاهرة (مصر / لسفير لبنان / الأيام (لبحرين)
القبس (الكويت) / البيان (الإمارات) / المدى (العراق)
الثورة (سورية) / الاتحاد (العراق) / الحياة (السعودية)

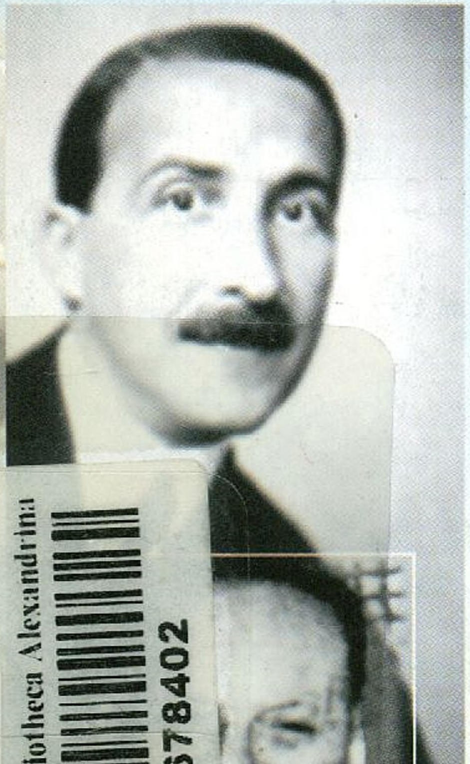

Bibliotheca Alexandrina
0678402
192
74
08

يروى هذا الكتاب سيرة الرحالة البرتغالى «فرديناند ماجلان» أحد كبار المستكشفين فى القرن السادس عشر الميلادى الذى ولد عام ١٤٨٠، وكان فى الخامسة والثلاثين حين شرع عام ١٥١٥م بالقيام برحلة يستكمل بها الدور الذى قام به اسلافه لاستكشاف العالم واثبات كروية الأرض، ولأن حكومة بلاده ضنت عليه بالمساعدة فقد لجأ إلى اسبانيا التى تحمست للمشروع فرحل على خمسة مراكب وبصحبته ٢٧٠ رجلاً وعبر الأطلنطى، ووصل إلى ساحل أمريكا الجنوبية واكتشف المضيق الذى لا يزال يحمل اسمه إلى اليوم ويقع فى شيلى والأرجنتين، ودخل إلى المحيط الهادى ووصل إلى جزر الفلبين، وفيها قتل فى ٢٧ أبريل ١٥٢١م، وهو فى الحادية والأربعين من عمره .. بعد أن برهنت رحلته على كروية الأرض وصححت الفكرة عن نسبة مساحة اليابس إلى الماء.

مؤلف الكتاب هو الروائى والمؤرخ النمساوى ستيفان زفايج (١٨٨١ / ١٩٤٢) الذى كتب عددا من التراجم المهمة عن «بلزاك» و«ديكنز» و«دستوفسكى» من بينها هذه السيرة.

وقد ترجمه إلى العربية صحفى وكاتب ومترجم ومؤرخ مصرى هو «حبيب جاماتى» أحد أعمدة الصحافة المصرية فى القرن الماضى، ولد فى منيا القمح عام ١٨٩٦ ثم هاجر مع والده - وكان طبيبا - إلى لبنان واشترك عام ١٩١٦ فى الثورة العربية الكبرى مع الأمير فيصل، وشارك فى الثورة المصرية عام ١٩١٩، وفى الثورة السورية عام ١٩٢٥، وعاد إلى القاهرة ليستقر فيها ويعمل بالصحافة إلى أن تفرغ للعمل فى مجلات «دار الهلال»، وتولى رئاسة تحرير مجلتها الفرنسية «إيماج»، وهو أحد رواد الكتابة فى الشئون العربية بالصحف المصرية رحل فى يوليو ١٩٦٨ عن ٧٢ عاما.